عطر الموتى

الكتاب : عطر الموتى
المؤلف : رشا نعمان
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف
تدقيق لغوي : هبة القاضي
رقم الإيداع : ٢٠١٩/٢٨٧٩٣
الترقيم الدولي :٤ -٥٩٩٣-٧٧٨-٩٧٧-٩٧٨
الطبعه الاولي : ٢٠٢٠

للنشر والتوزيع
٢٠ عمارات منتصر – الهرم – الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

رشا نعمان

عطر الموتى

رواية

ن للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أبي

في الصفحة الأولى من النسخة الأولى لكتابي الأول وقَّعتُ لك إهداءً خاصًّا بخط يدي لتحتفظ به، كنت مخطئة، كان يجب أن تكتبه أنت..
لقد بقيت النسخة معي وغبتَ أنت.

إلى المتألمين أصحاب نوبات البكاء المفاجئة وانقباض القلب واختناق المساء والوساوس التي لا تنتهي،

إلى مرضى الأرق والحزن والفراق..
يومًا ما سيحدث التعافي والسلوان.

«مأساتنا الكبرى تبدأ بنبتة فكرة نمت في عقل عجز عن السيطرة».

البداية

داخل غرفة تظهر جدرانها الطينية ذات الطلاء الأزرق الخشن، غرفة صغيرة بفراش معدني كبير وأرضية أسمنتية خشنة فُرشت بأكثر من بساط مصنوع من جلد الماشية، ليست للغرفة سوى نافذة وحيدة مفتوحة ولكن وُضعت عليها قضبان حديدية، تطل على أرض خضراء، حديقة المنزل أو ساحات مزروعة، تنام في الفراش طفلة ذات خمس سنوات وأمها تبعد بينهما مسافة ذراع.في جوف ليلة باردة حالكة الظلام هتفت الصغيرة:

"أمي عاد أبي".

فزعت هادية من سباتها العميق على صوت بريء هادئ تظهر في نبرته السعادة، فزعت أكثر لأن مصدر الصوت كان ابنتها الناظرة إلى شيء لا تراه أو لا تصدق أنها تراه.

نظرت حيث كانت تنظر ابنتها إلى النافذة الوحيدة، فرأت شخصًا يمسك بالقضبان.

تعرفت إليه في ذهول، كان وجه زوجها الذي من المفترض أنه يقضي ليلته الأولى في القبر، يبتسم وضوء خافت مسلط على وجهه وسط ظلام الليل الدامس.

ابتسم لها ثم تبدد وجهه في الظلام. ارتعدت هادية، ضمت ابنتها إليها،

ابتسمت الصغيرة وهي لا تزال معلقة نظرها بالنافذة، ما استفز هادية أكثر فسألتها:

إلى ماذا تنظرين؟

أجابتها الطفلة دون أن تلتفت إليها: أبي هنا معنا كما قالت جدتي.

احتضنتها أمها: هششش.. نامي يا صغيرتي.

ثم همست بينها وبين نفسها: غدًا سنغادر هذا البيت.. يجب أن نتركه سريعًا.

في الصباح..

وقفت هادية بجسدها النحيف أمام مرآة كلاسيكية بإطار ذهبي قديم معلقة على حائط طيني مطلي بلون أزرق باهت، في حجرة ليست بها سوى نافذة وحيدة وفراش وحيد فوقه حقيبتها وملابس مبعثرة، تصفف شعرها الأسود الطويل لينسدل على كتفيها،

تطل من عينيها نظرة مشبعة بالبكاء لليالٍ سابقة طويلة ومرهقة. دخلت ابنتها شذا تركض إلى ذراعيها تخفي شيئًا وراء ظهرها. احتضنتها هادية ثم انتبهت إلى يديها المضمومتين خلفها، فسألتها: ماذا في يدك؟

فتحتهما الصغيرة أمامها بغتة بمداعبة طفولية: شعر جدو.

تراجعت هادية إلى الوراء مشمئزة.. حاولت نفضه من يدها قائلة: اتركيه من يدك، هذه قذارة.

صرخت الطفلة مبتعدة، حاولت هادية جذبها:

تعالي لتستحمي وتنظفي يدكِ من هذه القذارة قبل السفر.

صرخت الصغيرة أكثر راكضة نحو الباب معترضة: لا لن أسافر.

لحقت بها أمها، أمسكت بيدها لتنفض ما فيها، فهتفت الصغيرة باكية: شعر جدي لا ترميه.

في هذه اللحظة دخلت من الباب سيدة بلغت السبعين احتمت الصغيرة في ردائها.

وقفت لتعقد منديلها الأبيض العتيق المطرز بورد ملون على رأسها وتظهر أطراف شعرها الأبيض أسفله هاتفة بصوت رخيم قاسٍ: لماذا تضربين شذا؟

وقفت هادية أمامها مضطربة وهي تدافع عن نفسها قائلة: لم أضربها، ولكنها ترفض الذهاب معي.

حمل صوت الجدة نبرة معاتبة مستنكرة: ألن تنتظري انتهاء عزاء اليوم الثالث؟

قالت هادية بصوت هامس متقطع خجول: يمكنني انتظار يوم آخر، ولكن شذا تعلقت بكِ إلى درجة غريبة، ولن تقبل الذهاب معي حتى بعد غد.

قالت الجدة مربتة على ظهر الصغيرة التي تحتضن ساقها: الطفل يتعلق بالأكثر حنانًا وتفهمًا، اتركيها معنا، البيت يعج بالصغار من أبناء عمومتها، اتركيها حتى تصلحي أحوالكِ ثم عودي لأخذها في أي وقت بعد أن تشبع منا.

أجابت هادية بفزع: لا يمكن أن أترك ابنتي.

ازدادت نبرة السيدة حدة: هي ابنتك وحفيدتي، ولي حق فيها مثلك بعد موت ابني المسكين.

اقتربت هادية منها ونظرت إلى عينيها: وأنا لي حق في ابنك وبيته وأرضه.

امتعضت الجدة من طريقة هادية، ما أثار غضبها فاحمر وجهها دون أن يرتفع صوتها: حقك مصان رغم أن هذا الحق رفضه زوجك سابقًا، رفض أن يعيش معنا، ظل منبهرًا بالمدينة الكبيرة حتى أمرضته، اذهبي إلى المدينة التي تركنا من أجلها، واتركي لي حفيدتي.

اقتربت هادية أكثر حتى كاد وجهاهما يلتصقان، ثم مالت لتنتزع ابنتها المتشبثة بجلباب جدتها، حملتها غصبًا غير مكترثة لبكائها وصراخها، ثم همست بهدوء: سأفكر.

أخذت ابنتها إلى الحمام، نفضت يدَي شذا اللتين أطبقتهما على شعر أبيض، ظلت الطفلة تبكي مرددة: شعر جدي.

لم تهتم لبكائها وربما لم تسمعها، فقد كان رأسها يطحن الكثير من الأفكار لينثر في نفسها المخاوف. بدأت في خلع ملابس ابنتها لتضعها تحت الصنبور فانتبهت لبكائها، احتضنتها تحت المياه دون حرص حتى بللت ملابسها وشعرها، فهمست الصغيرة في أذنها: أريد أن أبقى مع جدتي.

أبعدتها لتنظر إلى عينيها: ألن تشتاقي لي؟

فقالت الصغيرة بحزن: ولكني أشتاق أيضًا لأبي.

حاولت هادية احتواء حزن ابنتها: ذهب أبوكِ صحيح، ولكن أنا ما زلت معكِ.

فاعترضت الصغيرة بغضب: لا لم يذهب، لقد رأيت أبي وجدي، جدتي تعيدهم إلينا في أي وقت.

– لا يمكنها أبدًا فعل ذلك، الموتى لا يتمكنون أبدًا من العودة مهما فعلنا.

أجابتها الصغيرة بإصرار وإنكار مؤلم: ولكني رأيت جدي أمس، ابتسم لي وعندما ركضت نحوه اتسعت ابتسامته ولكنه لم يحتضني.

احتضنتها هادية مرة أخرى وهي تحاول أن تسيطر على رجفة جسدها: كفى.. كفى، اصمتي، إن كان كذلك يمكنك أن تري أباكِ وجدكِ هناك في بيتنا.

خلصت الصغيرة نفسها من بين ذراعي أمها وهي تهتف بتحدٍّ: لن أترك جدتي.

القسم الأول

(هادية)

بعد مرور عشر سنوات..

أنت تعلم كل من ينظرون إليك في هذا العالم يطلبون منك شيئًا، أيًّا كان هذا الشيء. لقد علمت ذلك الدرس بين دروس كثيرة في هذه الحياة، ربما تجد الحب من أصدقاء وزملاء وأهل لن أنكر ذلك، ولكن قد يحبك العالم لكمال صفاتك وما تبدو عليه، ولكنك لن تجد من يحبك رغم نواقصك. بعد مكالمة هاتفية مزعجة استيقظنا عليها أنا وزوجي نادر تخبرنا بوفاة جدة شذا، ذهبنا معًا إلى قريتها لأستعيد ابنتي، وعدنا إلى مدينتنا الكبرى حيث الزحام والسيارات السريعة والمباني العالية التي لم ترَها شذا قط في سنوات عمرها الخمسة عشر.

ركبت شذا معنا سيارة نادر بعد انتهاء عزاء جدتها في قريتهم الصغيرة، لم تبكِ الصغيرة طوال الطريق، ظلت ترقب المباني الأسمنتية شاهقة الارتفاع، والمحال التجارية الكبرى، حتى وصلنا إلى مبنى يشبه تلك المباني العالية التي أبهرتها في الطريق، ابتسمت عندما وجدت حول المبنى حديقة تمتلئ بالزهور الملونة. حمل نادر عني طفلنا الصغير شادي وصعد على الدرج نلحق به حتى الطابق الثاني، حملت شذا حقيبتها الصغيرة بخجل أصحبها إلى حجرتها، ليلحق بنا نادر بتحفظ بعد أن وضع طفلنا على السجادة أمام حجرة شذا. تعلق الطفل الصغير شادي ذو العامين بردائي وهو يحاول أن يخطو خطوات متوازنة فيترنح ثم يقع جالسًا على الأرض.. كنا قد جهزنا هذه الغرفة بفراش صغير ومكتب ونافذة واحدة وخزانة تحتل نصف الحائط لحفظ الملابس، حاول نادر أن يرفع عنها الخجل ويرحب بها بكلمتين لطيفتين مبديًا سعادته بوصول فتاتنا الصغيرة للعيش معنا بالمنزل، ما سيضفي عليه بعضًا من البهجة والجمال. خرجنا معًا أمسك بمقبض باب الغرفة بيدي لأغلقه خلفنا وأتركها تبدل ملابسها وتستريح، في حين تابع نادر حديثه ملتقطًا شادي من الأرض ليحمله على ذراعه مرة أخرى قائلاً: بقي أن ننقل أوراقها إلى مدرسة ثانوية مجاورة.

قلت معترضة على الفكرة بعدما رأيته منها في يومي العزاء: دعك من هذا الآن، البنت لا تدرس باهتمام ولا تحب الدراسة، إنها تحدثني في مشاريع صغيرة تثير القلق.

وضع نادر صغيرنا على مقعده الصغير المخصص له حوله ألعاب وأجراس معلقة، تأكد من أنه آمن في مقعده، ثم جلس قبالتي يسألني مندهشًا: مشاريع؟

أجبته وأنا لا أقل عنه دهشة: نعم.. تريد أن تصنع العطور أو تحيك الملابس وتطرز المفارش للجيران والأصدقاء، لا أصدق أن هذه ابنتي،إنها تتحدث كأمي لا كفتاة صغيرة في بداية المراهقة.

قال نادر بهدوء غريب: محتمل أن هذا نتاج حياة القرية ومرافقة الجدة لعشر سنين.

قلت بمزيد من التأنيب: كان خطأي، ولكن حياتي بعد موت أبيها لم تكن مستقرة ولم يكن دخلي يكفيني، والميراث لتستفيد من خيره يجب أن تعيش هناك معهم في بيت العائلة، أما وأنا هنا بمفردي لا يمكن أن يبعثوا لي قرشًا واحدًا، أخبرني كيف يمكنني استعادة ابنتي، صغيرتي.

ربت نادر على كفي وقال مطمئنًا:

أنتِ تكبّرين الأمر، خوفك عليها هو ما يفعل ذلك أما البنت ففي أفضل حال، بل إن حالها أفضل من حال فتيات المدن المدللات، وبمثل شخصيتها تلك يجب أن تطمئني لا أن تقلقي.

قلت بنفاد صبر: أنت لا تفهم، شيء غريب تغير في ابنتي، شخصيتها، نظرة عينيها.

ظل نادر صامتًا، فحاولت قطع الصمت وبنظرة توسل سألته: هل من الممكن أن تعود ابنتي بعد أن تعتاد الحياة هنا فتنسى ما غرسته الجدة؟

– هل هذه غيرة يا هادية؟ غيرة من حب الجدة التي حلت محلك واستحوذت على المشاعر التي كان من المفروض أن تكون لكِ؟

– لا ليست غيرة صدقني.

ربت نادر على كتفي محاولاً طمأنتي، عندما خرجت ابنتي من حجرتها بملامح جامدة لا يمكن تفسيرها وهتفت: أنا جائعة.

نهضت مسرعة لأحضر الطعام، وراقبتهما عن بعد.. جلست شذا صامتة على أحد المقاعد، تمسك بشيء ما في يدها تقبض عليه بحرص شديد، لمح زوجي أن في يدها شيئًا لونه أسود لم يفهم ما هو، حاول أن يفسر بوضوح ما في يدها ولكنها أطبقتها عليه بإحكام، انزعج عندما لمح يدها مصبوغة باللون الأسود كذلك ولكنه لم يهتم، أو لم يرد أن يقحم نفسه، حمل صغيرنا الذي غفا على مقعده ودخل به إلى حجرته ليتركنا أنا وابنتي بكامل حريتنا.

ناديتها بحنان: صغيرتي الطعام جاهز.

ركضت ابنتي نحو مائدة الطعام ووضعت تلك التميمة الغريبة على المائدة،

فصرخت: ما هذا؟

التقطتها شذا مرة أخرى لتختفي في كفها.

فزعت أكثر وسألتها بتردد: إنه عقرب، تحملينه في يدك وتطبقين عليه كيف؟ أرخي قبضتك.

أرخت قبضتها فظهرت متسخة وفي يدها شيء يشبه الأحجار لونه أسود كالفحم.

قلت: يدك متسخة تعالي اغسلي يدك.

أفلتت شذا ذراعها من قبضتي بعنف قائلة بعناد: لن أغسل يدي.

- لا يمكن أن تأكلي ويدك ملوثة هكذا.

صرخت بي: اتركيني.

جلست أمام مائدة الطعام، وضعت ذلك الحجر برفق، اقشعر بدني مرة أخرى وهو يتراءى لي بصورة عقرب يسير فوق المائدة بينما ابنتي تلتهم الطعام بكلتا يديها بنهم.

******

"اتركيها تتصرف بتقاليد القرية التي اعتادتها حتى تستعيدي مشاعرها نحوك، وبعد ذلك يمكنك تقويمها".

قالها زوجي ممسكًا بربطة عنقه أمام المرآة يهندم ملابسه استعدادًا للذهاب إلى العمل.

وقفت خلفه محاولة بثه مخاوفي: أنت لم ترَ ما فعلته بالأمس، لقد نمت فورًا مع الصغير أما هي فجعلتني أقضي ليلة مرعبة.

يجيبني بالبرود ذاته: ما المشكلة في أن تأكل بيدين متسختين؟ عندما تتلوى من ألم المعدة يمكنك تعنيفها على فعلتها.

- لا ليس هذا فقط ولكنها تحدث نفسها، ابنتي تفعل أشياء غريبة بالفعل.

قال وهو يرتب الأوراق في حقيبته: عندما أعود نناقش هذا الأمر.

قلت بدلال: لا تذهب إلى العمل اليوم.

- وأنتِ ألن تذهبي إلى عملك؟

- وأترك شادي مع ابنتنا بتصرفاتها الغريبة تلك؟

- ماذا بكِ يا هادية؟ ستتركينه مع المربية، وشذا غالب الوقت في غرفتها.

- لا لن أتركها معهم هكذا أبدًا.

تحدثنا حتى وصلنا إلى باب المنزل فقبَّلني وأنا أودعه، وبمجرد أن صفعت الباب خلفه سمعت صوت شذا تخرج من غرفتها، استدرت لأراها، سارت أمامي بهدوء حاملة هرة بيضاء وليدة.

ركضت نحوها: هذا ما كان ينقصني! من أين أتيتِ بها؟

نظرت إليَّ نظرة تحدٍّ مخيفة: إنها ابنة قطتي التي توفيت.

لم أفهم قصدها سألتها: متى توفيت؟ وكيف وصلت إلى هنا.

أجابتني بكل هدوء وثبات: أنا أحضرتها.

- سأجن، هذا ما تريدينه أليس كذلك؟

تغيرت لهجة ابنتي المتحدية ونظرت إليَّ باستعطاف وعينين دامعتين:

هل لديكِ اعتراض على تربية قطة؟ إنها تسليني.

فكرت للحظة فوجدت في ذلك فرصة لكسب ودها فوافقت على بقاء القطة، ولكن شرط أن تغسل يدها قبل الأكل فوافقت شذا، وظننت بذلك أنني في طريقي الصحيح لترويضها، ونحيت لغز هذه القطة جانبًا، لا بد أن في الأمر كذبة ما، كل ما جاء في ذهني وقتها أنها تسللت ليلاً إلى الخارج لتأتي بهذه القطة.

ذهبت ابنتي وهي تحمل قطتها في جيب جلبابها الطويل لتغسل يديها جيدًا، تابعتها فوجدت أن ما في يدها مجرد حنة تصبغ يديها، فربت على كتفها وقبلتها لشعور خاطف بالذنب تسلل إليَّ لحظتها، وضعت لها طعام الفطور وشادي يلعب في أرضية المنزل يركض وراء السيارة التي تعمل بالكهرباء ثم يعود ليداعب قدمي أخته، تسللت قطتها من مخبأها وظلت تداعبها وتصعد فوق ذراعيها وهي تغرس مخالبها في ملابس ابنتي، ناديتها من داخل الشرفة: أعتقد أن هذه الزهور ستفيدك في مشروعك.

ركضت نحوي تتأمل الحديقة الصغيرة في شرفتي كأنها وجدت كنزًا. قالت بسعادة: أنا سأعتني بكل هذه النباتات، اتركيها لي.

فوافقتها، تركتها لأعد الطعام، كل يوم في مثل هذا الوقت أكون في العمل وتأتي السيدة منيرة في الصباح تعتني بشادي، وعندما أعود تعد هي الطعام لنا ثم تغادر، هي سيدة خمسينية كانت تعمل لدى أم نادر منذ صغرها ربته وربت شقيقته، سيدة أمينة ونظيفة ومهذبة، بالأمس منعتها من المجيء، لن أطلب منها العودة قبل أن أعرف كيف سأتعامل مع ابنتي غريبة الأطوار تلك، انتبهت على صرخة، ركضت لأجد ابنتي تمسك بالصغير من رقبته في محاولة لخنقه وهي تبكي، وقطتها في يده مختنقة.

تركت رقبته فور رؤيتي، وصرخت باكية: قتل قطتي.

– وكيف تتركينها من يدك؟ هذا طفل لا يعي شيئًا.

– أنتِ لا تعلمين ما عانيته لأستعيدها، فيأتي ابنك ليقتلها في لحظة.

– هذا أخوكِ.

نهضت لتخلص قطتها الميتة من بين يديه والصغير يبكي متشبثًا: ليس أخي، جدتي قالت هذا ليس أخي.

نهضت منتبهة لقولها: ومن أين علمت جدتك بأمره؟

صمتت كأنها ارتكبت جرمًا، فحاولت أن تبتعد لتختفي في حجرتها، ولكني اعترضت طريقها: أجيبيني هنا.

أمسكت بذراعيها ونظرت في عينيها:

كيف عرفت جدتك؟ أنتِ نفسك علمتِ بذلك بعد وفاتها، فمن أين عرفت هي؟ أنا لم أخبرها قط شيئًا عن حياتي وزواجي وإنجابي.

أطرقت برأسها وخرجت الكلمات من شفتيها همهمات: لا شيء يخفى على القرية، لا شيء يخفى على جدتي.

أفلتت ذراعيها من بين يدي راكضة إلى غرفتها وتركتني لذهولي. نظرت إلى الأرض حاملة عبء تنظيف المكان والتخلص من جثة قطة، حملت ابني الباكي من الأرض احتضنته وأخذته لأغسل يديه ووجهه، التقطت المقشة وبعض الأقمشة لألف بها القطة، ولكن عندما عدت إلى المكان لم أجد القطة مكانها، فرفعت ابني مرة أخرى وذهبت إلى ابنتي، هاجمتني رائحة كريهة عند باب غرفتها، فتحت الباب كانت تجلس في وسط الغرفة مبعثرة حولها أوراق شجر وزجاجات صغيرة.

– هل حملتِ جثة قطتك إلى هنا؟

– لا.

– ما هذه الرائحة؟

– إنها زهور قصصتها من شرفتك لأصنع عطر، انظري.

ثم فتحت درفة في الخزانة تراصت فيها مجموعة من البرطمانات، سألتها: ما هذا؟

هزت كتفيها وأجابتني ببساطة: عطوري.

– ولكن هذه الرائحة النفاذة في الغرفة غريبة، ليست عطرًا محببًا إطلاقًا.

- لأن العطر في مراحله الأولى.

- ما الأدوات التي تستخدمينها لصناعة العطر؟

- هذا سر المهنة، علمتني جدتي أن أحفظ سري إلى الأبد.

تابعت رغم وجومي وصمتي:

أتعلمين؟ يمكنني صناعة رائحة أبي، هل تذكرين رائحته؟ أم أنكِ نسيتِها بعد الزواج؟

- لا، لا، لم أنسَها قط.

- هل كنتِ تحبينه؟

- بالطبع.

- ولماذا تزوجتِ بعده إذًا؟

- هذا كلام يطول شرحه يا شذا، ظروف كثيرة جعلتني أفعل ذلك.

- من أجل أن تنجبي ولدًا صغيرًا مثل هذا يعوضك عن الابنة التي تعلقت بجدتها، أليس كذلك؟

- شذا كيف تتحدثين معي بهذه الطريقة؟ أنا أمك، وأحبك ولم أتخلَّ عنكِ ولم يكن هناك حل أفضل، ربما كنت مخطئة ولكن..

فقدت السيطرة على انفعالاتي وانهرت في البكاء وعلا صراخ ابني معي فضممته إلى صدري، حاولت السيطرة على نفسي وتهدئة طفلي فجلست على طرف الفراش ولكن على العكس ازداد نحيبي، فخبأت وجهي في جسد طفلي الذي بين ذراعي، شعرت بابنتي تجلس إلى جواري وتربت على ظهري، بدأت أهدأ فمسحت دموعي بكفها تلك فابتسمت لحنان ابنتي وعطفها عليَّ، رفعت ذراعي لآخذها تحته وأحتضنها وأنا ألتفت نحوها ببطء ففزعت ووقفت أصرخ وركضت نحو الباب وضربات قلبي تعلو وتتسارع، لم تكن الجالسة إلى جواري ابنتي بل كانت جدتها بيدها المرتعشة ووجهها المجعد وعينيها الحادتين أعرفهما جيدًا.

*****

قبل عودة نادر كنت أشعر بالخوف، هربت إلى غرفتي وأغلقتها خلفي بالمفتاح، عندما عاد من العمل ظل يطرق باب غرفتي حتى ملَّ فطرق غرفة ابنتي، ازداد شعوري بالخوف، فأرهفت سمعي، أتاني صوته هادئًا:

هادية هل أنتِ هنا؟

أجابته شذا بتحفز: كانت هنا ولكنها صرخت في وجهي وتركتني غاضبة.

سألها منزعجًا:

لماذا؟ ماذا حدث؟

- لا شيء، كل ما في الأمر أني سألتها عن حبها لأبي فظلت تبكي وركضت وهي تبكي وأغلقت الباب خلفها.

أصابني الخوف مما يمكن أن يدور في ذهن نادر بعد ما قالته، أرهفت سمعي في هذه اللحظة، نبضات قلبي تتسارع، أتمنى أن يسيطر على أعصابه ولا يؤذيها، إلا أنه قال في ثبات: شذا، إن والدك توفي وأنتِ صغيرة وبالتأكيد كانت هذه الفترة صعبة على أمك، وستظل متأثرة بها حتى بعد مرور سنوات.

- لماذا صعبة؟

- هذه الأمور يصعب عليكِ إدراكها الآن، أنتِ ما زلتِ صغيرة وخبراتك محدودة، ومواقف الموت عمومًا مؤلمة ما بالك بسيدة شابة تجد نفسها وحيدة مع ابنتها بعد وفاة زوجها.

- وحبيبها.

زادت دقات قلبي، تصورت نادر يصفعها على وجهها ولكنه لم يفعل وسألها غاضبًا:

ماذا تريدين بالضبط؟

- أريدك أن تعرف أن أمي تحب أبي، وستظل تحبه، هي زوجتك فقط لأنها تحتاج إلى طفل آخر تمارس أمومتها معه.

همس بشيء ربما سبها، سمعت صوت أقدامه تتجه نحو الباب، اعترضت شذا طريقه:

هل والدك على قيد الحياة؟

- لا.

- ألا تفتقده؟

- بالتأكيد.

- ألا تريد أن تشم رائحته؟

- أنا أشتمها بالفعل في بيت أمي.

- هذا لأن أمك حفظت ذكرى والدك.

قالتها بأداء تمثيلي مفتعل للحزن ومبالغ فيه.

قررت الخروج لإيقاف هذا الحديث فورًا، أدرت المفتاح في رتاج الباب ولكنه لم يفتح، وبينما أحاول فتحه رأيت يدًا تملأها التجاعيد تنفذ من أسفل الباب وتتمدد لتصبح ذراعًا طويلة تمسك بقدمي فصرخت لأستغيث بنادر، ظللت أطرق الباب بخوف وجنون، ناداني نادر من الخارج: ماذا حدث؟ لماذا لا يفتح الباب؟

- لا أعلم، المفتاح يدور ولا يفتح.

اختفى صوته وعلا صوت قدميه المتجهتين نحو المطبخ، في هذه اللحظة امتدت يد أخرى بسكين بينما تتشبث تلك اليد الأولى بقدمي، ناديت نادر ثانيةً، عاد صوته ليطمئنني فاختفت الأيدي، وبينما أتنفس الصعداء فتح الباب لأجد نادر واقفًا مصوبًا سكينًا في وجهي ففزعت وحاولت الهروب منه، حتى أدركت أنه فتح الباب بهذه السكين، قذفها في ركن الحجرة وفتح ذراعيه فارتميت بينهما: سأموت رعبًا.

- أين شادي؟

- نائم في الداخل. لم أشعر بالأمان إلا عندما سمعت صوتك.

- لا تخافي أبدًا، أنا هنا دائمًا، أنتِ محقة، هذه الفتاة فيها شيء غير طبيعي، وفاة جدتها أمامها ليس بالأمر السهل. ما رأيك أن نلجأ إلى متخصص؟

- لا، أنا لا أريدها في المنزل، إنها ليست ابنتي، أنا لا أعرف أي شيطان سيطر عليها.

– كلامك هذا يزيد حالتها سوءًا.

– صدقني هذه ليست ابنتي.

احتضنني نادر مرة أخرى محاولاً تهدئتي متفهما

****

في المساء جلسنا معًا في ردهة المنزل، ثم تركت شادي مع أبيه وذهبت لتحضير العشاء، كانت شذا في حجرتها، لاحظت ظهورها المباغت لنادر، كأنها نبتت من العدم، انزعج نادر ولكنه لم يعرها اهتمامًا واستكمل مداعبته لطفلنا، قالت له بلهجة باردة: أريد أن أخبرك أنني أكبر مما تتصور وأعرف الكثير عن موقف الموت ربما أكثر مما تعرف أنت وأمي عنه.

كان يصلني صوتها وأنا أعمل دون أن ألتفت إليها، فالتفتنا إليها معًا لنجدها اختفت.. تابعها نادر بنظره لطريق الغرفة لم يكن لها أي أثر، لولا أنه رآها معي لظننت أن كل هذا الحديث هيئ لي، علا صوت هاتف نادر بالنغمة المميزة لأمه المسنة المريضة غالب الوقت، لديها جليسة تأتيها بضع ساعات في اليوم،

تحضر الطعام ويذهب نادر آخر اليوم ليطمئن على أحوالها وتناولها الدواء بانتظام، ثم تهاتفه بعد عودته لتستأنس في وحدتها، لا بد أنها الآن تريد الحديث معه لبعض الوقت، ولكن وصلني صوت صراخ على الطرف الآخر من المكالمة، فهرولت إليه: ماذا هناك؟

– أمي مريضة. سأذهب فورًا.

– الآن؟

– ألا تدركين الموقف؟ أمي تموت.

في هلع لملم ملابسه ليرتديها بجوار الباب، التقط هاتفه وركض إلى الخارج.

لمحت ابني يزحف نحو غرفة أخته فانحنيت لألتقطه من الأرض، ولكن يدي مرت من خلال جسده كأنه هواء حتى وصل إلى باب الغرفة ففتحت وأغلقت بمجرد دخوله،

طرقت الباب بعصبية، هاجمتني رائحة أعرفها جيدًا بمجرد أن تسربت إلى أنفي شعرت بتقلص في معدتي، هتفت بشذا بعصبية من خلف الباب: ماذا تفعلين؟

- لقد نجحت.

أتاني صوتها وهي تفتح الباب وتمد إلى أنفي زجاجة صغيرة تصوبها في وجهي كسلاح: رائحة أبي أليس كذلك؟ هل صدقتِ موهبتي؟

- كيف تفعلين ذلك؟

- هذا سر جدتي.

- ولكن هذه الرائحة ليست فقط نوع العطر الذي كان يستخدمه.

قاطعتني بحماس وفرحة: نعم ولكنه ممتزج برائحة جسده، هذه الرائحة هي التي تجذب روحه لتظل معنا.

انتفض جسدي وتلفت حولي أبحث عن شادي: أين شادي؟

-كان في الخارج مع والده.

-ولكنه دخل هنا، أنا متأكدة.

جاءني صوت صراخه في الخارج، هممت بفتح الباب للخروج فرأيت زوجي المتوفى عبد الحميد يمر عبر الجدار بجوار النافذة حاملاً شادي موجهًا حديثه لي: طفل جميل وهادئ.

صرخت: شادي، لا تؤذِه.

جالت عيناي في الغرفة أبحث عن ابنتي، وجدتها في ركن منحنية منهمكة في عمل ما وإلى جوارها شخص آخر يتابع عملها باهتمام.

قلت: من هنا؟ كيف دخلتم بيتي؟

التفت الشخص الجالس إليَّ، كان وجهه مظلمًا ثم بدأ يتضح حتى بدت لي ملامح الجدة وبجوارها قوارير صغيرة وعلبة بها سائل يملآن به تلك القوارير بدقة وحرص شديدين، نهضت شذا متجهة نحوي فتراجعت إلى الخلف تلقائيًّا وعيني على ابني بين ذراعي ذلك الرجل الميت.

تحدثت شذا بصوت شبه باكٍ: يا أمي هؤلاء أهلي الذين أحبهم ولدي القدرة على استعادتهم بعد الموت.

– أي شياطين جلبتِ إلى المنزل؟

أجابت بالصوت الباكي نفسه برجاء: أليس لديكِ أهل، أحباء؟ أين أمك وأبوكِ؟ هل ماتا؟ هل لديكِ شيء من بقاياهم؟ أخبريني، لأجعلهم يعيشون معنا.

– هذا جنون، لا يمكن أن يحدث ذلك أبدًا.

بكت شذا على نحو درامي يشبه تمثيل الأفلام الرديئة: لماذا لا تصدقينني؟ أنتِ تكرهينني.

كنت مشغولة بشادي أكثر من أي شيء آخر، خائفة، أريد أن أنتزعه من بين يدي عبد الحميد، لم أكن أشعر نحوه بشيء، هو في نظري رجل ميت، شبح واقف في سكون في ركن الغرفة.

تحولت نبرة شذا المتوسلة إلى نبرة حادة عدائية: جدتي محقة فيما قالته عنكِ، أنتِ لن تفهمي إلا إذا مات شخص تحبينه، وقتها ستفعلين كل شيء لاستعادته، ستعيشين كقطة في المنزل تتمسحين في كل شيء يخصه وتدسين أنفك فيه لتلتقطي بعضًا من رائحته، لإسكات الألم في قلبك لبعض الوقت.

فزعت لكلامها وطريقتها: شادي، أين شادي؟

بكت شذا بين يدي بحرارة وصدق هذه المرة: ولكن شادي صغير جدًّا وأنا سأبكي عليه.

نظرت مرة أخرى إلى الركن الذي يقف فيه عبد الحميد يحمل ابني ولكنه اختفى واختفت الجدة، تبدد كل ما رأيته كحلم أفقت منه، أمسكت بذراع شذا، وأطلت النظر في عينيها: أين ذهب شادي؟

تملصت من بين يدي: قلت لكِ إنه مع زوجك في الخارج.

سمعت صراخه في الخارج فهرعت خلف الصوت، أدور في أرجاء المنزل، وخلفي تلك المجنونة، لم أجد شادي في أي مكان وهي خلفي تضحك وتقول: لقد تبخر شادي.

- أنتِ مجنونة.

- لماذا لم تحبيني يا أمي؟

لم أعرها اهتمامًا، القلق ينهش روحي ويشتعل في عقلي بتصورات مخيفة لما يمكن أن يحدث له: سأخبرك بعد أن يظهر شادي.

لمحت صغيري يزحف باكيًا أسفل الأريكة، التقطته وجلست أرتجف، احتضنته حتى يهدأ.

قالت شذا بينما تجلس إلى جواري: أنتِ بالفعل لا تحبينني، هل لأنكِ كنتِ تكرهين أبي؟

أمسكت بيدها محاولة بثها بعضًا من الحنان والحب وبهدوء قلت: لماذا تظنين طوال الوقت أني أكرهك؟ هل هذا ما زرعته جدتك في رأسك؟

واجهتني بنظرة معاتبة آلمتني وارتعش معها جسدي: ولكنكِ تركتِني هناك في القرية بعيدًا عن حضنك.

- لأن جدتك لم توافق على منحي ميراثنا من أبيكِ.

- ولكن الأرض والأموال ملك جدتي لا ملك أبي لنرثه.

علا صوتي وأنا أمسك بذراعها حتى آلمتها: هذا كلام جدتك تتحدثين مثلها، كأنكِ هي، لا يا شذا، والدك كان لديه ملك من ماله وأرضه كانت شراكة مع عمك، وعمك خان ثقته ولم يمنحني حقي.

همت واقفة نازعة ذراعها من يدي: ولكن هذا لا يبرر تركك لي حتى إن كانوا أخذوا مالك، لماذا تركتِهم يسلبونكِ ابنتك أيضًا؟

سالت دموعي رغمًا عني: لأني لم أملك المال لتلتحقي بمدرسة تناسبك وترتدي ملابس جيدة وتأكلي أفضل طعام.

- وهل كان مناسبًا في رأيك أن أعيش في القرية وأدخل مدرستها المتواضعة؟ ألم يكن من الأفضل أن أظل معك حتى لو لم أنَل أي تعليم!

جذبتها نحوي لأضمها: أنا أخطأت، أعتذر لكِ، أنتِ محقة، ولكني وقتها رأيت أن هذا الأفضل، جدتك ارتبطت بكِ وكذلك أنتِ، في كل سنة كنت أحاول أن أستعيدك، كنتِ ترفضين وجدتك تقيم الدنيا ولا تقعدها.

ظلت كقطعة خشب، باردة متصلبة بين ذراعي ثم همست: ولكني لن أسامحك.

*****

تختفي في حجرتها مرة أخرى لتحل لعنة خفية في أجواء المنزل، ابني على ذراعي لا يكف عن البكاء، تأخر الوقت ولم يعد نادر حتى الآن، أبحث عن هاتفي في أرجاء المنزل، أسمع رنينه عند باب المطبخ، أذهب إلى هناك، أبعثر الأشياء فوق الرخامة، الرنين يعلو، أسمعه داخل أحد الأدراج، أفتحها جميعًا، أخرج ما فيها، لا شيء،

شادي على ذراعي يبكي، أهدهده، أعد له بعض الطعام السريع، أطعمه قليلاً حتى يغفو، آخذه إلى حجرتنا لأضعه في فراشه الصغير.

أضعه وألتفت إلى الباب فألمح قطة آتية من الخارج تختبئ أسفل فراشي، جثوت على ركبتي أبحث عنها، لم أجد لها أثرًا.

يعود رنين هاتفي من جديد، إنه في الخارج ولكنه قريب، أخرج إلى الردهة فيغلق الباب خلفي من الداخل، شخص ما يحكم استدارة المفتاح في رتاج الباب، ينخلع قلبي، أحاول إنكار ما أسمعه، أتشبث بالباب أحاول فتحه، لكنه لا يفتح مطلقًا، أقرع الباب، يرفض عقلي ما أفعل، لا أحد في الداخل سوى صغيري النائم فماذا أفعل؟ أسمع همسات صوت مألوف، زوجي الراحل يقول: شادي نائم كملاك، انظري إنه أخوكِ الصغير.

هل شذا بالداخل؟ خدعتني ودخلت كقطة؟

أحضرت أبوها داخل حجرتي.. ماذا تريد أن تفعل في شادي؟

أخوها لايزال صغيرًا مسكينًا، تفكيري سيقتلني، كيف أصدق كل هذا؟

لا بد أن تغادر شذا منزلنا، أين أنت يا نادر إلى الآن؟!

يعلو صوت الهاتف من جديد، أحاول البحث عنه أسفل الأريكة لينقطع صوته فجأة، ونصف جسدي محشور أسفل الأريكة، منطقة مظلمة تمامًا، لا أرى الهاتف ولا أسمع صوته، لا بد أن بطاريته نفدت، أسحب جسدي إلى الخارج حيث الهواء والنور ولكن الظلام يظل سائدًا، أشعر بجسد ثقيل إلى جواري يرتعش فوق الأريكة، أهمس: نادر.. أهذا أنت؟

لا أسمع جوابًا، أرتعد خوفًا، أكاد أبكي رعبًا: شذا؟

ليأتيني صوت العجوز غالية جدة شذا: جئت لأتحدث معكِ بهدوء.

- أنتِ؟ هنا؟ ألم يغيبك الموت؟

- الموت يغيب الجسد، إن كنتِ تخافين لن آتيكِ ثانيةً، ولكن لا بد أن ننهي الأمور العالقة بيننا.

- أي أمور عالقة؟ سلبتِني مالي وابنتي وفات الوقت لتصحيح الأمر، كيف سنحل ذلك الآن؟

- أعلم أنكِ غاضبة ولكن ابنتك وهي معي كانت في غاية السعادة، لماذا تحملين نفسك هذا الذنب؟

- لا يمكن أن تكون ابنتي سعيدة وهي بعيدة عن حضن أمها.

- هذا قدرها، أن تفقد أباها وأمها، ولكن أنا أشبعتها حنانًا وحبًّا.

- ولكنها لم تفقد أمها، أنتِ من حرمتِها منها وهي على قيد الحياة.

- وليكن، فقدتها وهي على قيد الحياة، ليس هذا هو المهم، المهم هو أن تفهمي أن ابنتك عاشت معي سعيدة وأن تنهي هذا الأمر بداخلك، أما المال فقد وصيت أبنائي أن يمنحوكِ مبلغًا شهريًّا بعد وفاتي.

- لكني لم أعد بحاجة إلى هذا المال الآن، كنت بحاجة إليه في الماضي لأجعل شذا تعيش معي.

- وهذا مال شذا كما تعلمين، ليس مالك وحدك.

عادت الإضاءة إلى الردهة، لم يكن هناك أي أشخاص على الأريكة، اختفت الجدة تمامًا رغم أن حديثها وصوتها لا يزالان في أذني، أذكر كلماتها كلها، لا يمكن أن يكون هذا خيالاً. سمعت صوت المفتاح يدور في رتاج باب المنزل، فتح نادر الباب ودخل يبحث عني بعينيه في أرجاء الردهة، فهرعت إليه لأرتمي بين ذراعيه كالجندي المثخن بالجراح الناجي من معركة ضروس ووجد أخيرًا سيارة إسعاف، التقطني نادر بين ذراعيه، ضمني وجلسنا على الأريكة معًا. قلت: لماذا تأخرت؟

- هاتفتكِ كثيرًا، هاتفك لا يجيب.

درت بعيني وأنا أشرح له: لا أجده ولا أعلم أين ذهب، وكدت أفقد عقلي وأنا أبحث عنه، كانت ليلة صعبة، صعبة جدًّا.

-لا تقلقي، تحدثت مع صديق لي طبيب وسنأخذ شذا إلى طبيب نفسي في أقرب فرصة.

خبأت وجهي في صدره أبحث عن شعور بالأمان يمحو تلك الليلة المرعبة وهمست:

لا أعلم من منا يحتاج إلى طبيب.

احتضنني أكثر ثم أمسك بيدي ونهض بي إلى غرفتنا، عند الباب ارتبكت حتى فتح باب الغرفة في يسر، دخلنا معًا وفي طريقه إلى الفراش قبَّل جبين شادي النائم في فراشه دون أن يفلتني من يده، أجلسني بجواره على طرف الفراش وسألني: ماذا حدث في غيابي؟ أشعر أنكِ لستِ بخير.

ابتلعت لعابي ألف مرة حتى جف حلقي وتصلبت يدي: لقد رأيت أشياء غريبة، رأيت زوجي الميت، وأمه في بيتي، في غرفة شذا وفي الردهة.

- كنتِ تحلمين؟

خبأت وجهي في صدره مرة أخرى: لا أدرى، لم أعد أحسن التمييز، أنا متعبة، وسأموت قلقًا عليكما.

رفعت رأسي ونظرت في عينيه: ما رأيك بدلاً من الطبيب نضعها في مستشفى متخصص لحالتها تلك، تعالج ونتخلص من كل هذا القلق.

– ستفقدينها إلى الأبد.

– أنا فقدتها بالفعل، إنها تحطم أعصابي، لا يمكنني الاستمرار بهذا الخوف، سأقتل نفسي.

– اهدئي حبيبتي، ودعينا من هذا الآن، غدًا أو بعد غد ستأتي أمي للعيش معنا، لم أعد مطمئنًا لتركها بمفردها في المنزل، روحي ممزقة بين هنا وهناك، ما رأيك سآتي بفراش من منزلها نضيفه إلى حجرة شذا.

وقفت مفزوعة أعلن رفضي هاتفة: لا، غرفة شذا لا، مصنع العطور هذا لن تتحمله أمك.

– أين ستعيش إذًا؟

– في غرفة المكتب، ما رأيك؟

– لا، أنا أحتاج إلى الانتهاء من أعمال كثيرة في البيت والسهر عليها وأمي تنام مبكرًا جدًّا.

عدت لأجلس بهدوء وأنا أقترح: إذًا ننتقل نحن إلى غرفة المكتب، وأمك تعيش هنا، ننقل الفراش وبعض الملابس فقط، سننام ثلاثتنا معًا، لا أريد أن أترككما لحظة.

ربت على كتفي: ولكن السهر والعمل يزعجكما أيضًا.

– إطلاقا.. هذا أفضل حل لنا.

قبَّل جبيني: إذًا في الغد سنعيد ترتيب الغرف، أشكرك، أعلم أنها فترة صعبة ولكن سنتحملها معًا.

*****

يوم كامل من الإرهاق، لم أكن أعلم أن الأمر بهذه الصعوبة، إلا أن نادر تحمل الجزء الأكثر من المشقة، فقد ذهب إلى منزل أمه ليجمع ملابسها وبعض متعلقاتها، أحضر النجار بالفراش لإعادة نصبه، لهاثنا في ترتيب الحجرة والفك والتركيب ووجود ذلك الغريب في المنزل -النجار- كل ذلك أصابني بالتوتر حتى أتم الرجل عمله أخيرًا وترك المنزل، وبقيت في حجرتنا الجديدة -حجرة المكتب سابقًا- أرتب بعض الأشياء، الحجرة أكبر وأوسع، وسعت فراشنا الكبير ومشجبًا بجوار الفراش وخزانة صغيرة للملابس ومكتب نادر في ركن الحجرة، تركت في حجرتنا القديمة فراش الصغير سينام بيننا، لا أريده أن يغيب عني حتى لو في فراشه، لم تظهر شذا قط في هذا اليوم، لم تغادر غرفتها حتى ولو من باب الفضول، أو الشكوى من هذا الإزعاج، فهي حتى لم تتناول فطورها. عندما بدأت في كنس أرضية الغرفة أخرجت شادي ليجلس أمام التلفاز في ردهة المنزل وتابعته عن بعد بعيني، انتهيت لأجلس على مقعد المكتب ألتقط أنفاسي بينما نادر يرتب ملابسه وأوراق عمله.

قلت: ألم تلحظ أن شذا لم تخرج اليوم من حجرتها؟ لا بد أنها جائعة، سأذهب لأعد لها بعض الطعام.

قطع عمله واتجه نحوي: انتظري.. سنطلب طعامًا، أعلم أنكِ مرهقة، وأنا أيضًا.

ابتسمت بدلال: هذا زوجي الذي أحب.

جاملني بابتسامة متعبة ثم نهض ليبحث عن هاتفه: سأذهب لأطلب، اعتني بشادي.

خرجت إلى الردهة متثاقلة، كان شادي لايزال يلعب بمكعباته الصغيرة، تمددت فوق الأريكة وارتخت جفوني رغمًا عني، من فرط الإرهاق استسلمت للنوم، ولكن عندما رأيت شذا أمامي استعدت نشاطي كله دفعة واحدة، لقد فزعت لوقفتها. قالت كمن تقرأ هواجسي نحوها: اطمئني شادي الصغير أنا أحبه، ولكن زوجك هذا ما فائدته؟

انتبهت لها أكثر بكل حواسي واعتدلت في جلستي: زوجي؟ زوجي هو من يهتم بشأني وشأنك وشأن أخيكِ الصغير، هو من يكفلنا ويحمينا.

جلست على طرف الأريكة ولا أدري لماذا اقشعر جسدي عند ملامسة جسدها، همست لي:

أتعلمين؟ أحيانًا أحبك وأشعر أنكِ تحبينني.

شعرت بسعادة لسماع كلماتها فاعتدلت أكثر لأقترب منها وأرى عينيها: أنا أحبك فعلاً، أحبك جدًّا، أنتِ ابنتي، ولكن رغمًا عني تركتك مع جدتك، صدقيني،

لن أغفر لنفسي هذا الخطأ أبدًا، تعالي لأضمك، منذ أن أتيتِ إلى هنا وأنا أهفو لضمك ضمة أم لابنتها.

فتحت ذراعي فارتمت داخلهما لثوانٍ ثم انتزعت نفسها من بينهما، أمسكت بكل يد بذراع، قلبت كل ذراع بقوة تغلب قوتي بكثير وغرست أظفارها في معصمي كطعنة سكين حادة في شرايين يدي، صرخت من شدة الألم الذي شعرت به، أغمضت عيني من هوله وصدمتي من فعلتها، هرع نادر إليَّ في هذه اللحظة التي سمع فيها بكاء شادي خوفًا بعد صيحتي من الألم، اختفت شذا، لم تعد هنا ولم أسمعها وهي تنسحب إلى حجرتها، بعض قطرات الدم تسيل من معصمي الأيسر ونادر يهتف مفزوعًا: ماذا حدث؟ مم هذا الجرح؟

ركض ليبحث في حجرتنا والحمام عن قطن وضمادة ومطهر للجرح، ظل يبحث بين أشيائنا المبعثرة هنا وهناك، نظف الجرح ووضع ضمادة ولاصقًا، قبَّل كفي وبعينين دامعتين قال: كيف جرحتِ نفسك؟ هل كنتِ تحاولين الانتحار؟ تريدين أن تتركيني؟ تتركي ابنك وحبيبك، أكل هذا من أجل شعور بالذنب تجاه ابنتك الكبرى؟

هززت رأسي نافية: لا.. لن تفهمني، أنا لم أقصد.

قطع كلامنا صوت طرقات على الباب، أحضر العشاء ووضعه على الطاولة دون أن يحدثني في الأمر مرة أخرى، حملت شادي ووضعته في مقعده جوارنا ووضعت بعض الطعام في طبق ذهبت به إلى شذا في حجرتها، طرقت الباب فسمعت همسات لأصوات مختلفة،

سمعت صوت أمي تهتف بصوتها الغاضب عندما كانت تعاقبني في صغري على فعل خاطئ، كانت تصفعني على وجهي وهي تهتف: لقد أخطأتِ لا تفعلي هذا مرة أخرى.
هل أحضرت شذا روح أمي؟ من أين ستأتي بمتعلقاتها وعطرها؟
فتحت الباب فلم أجد شيئًا، صمتت الأصوات كلها حتى شذا نائمة في فراشها بلا حراك، ناديتها: شذا حبيبتي قومي لتأكلي، لم تأكلي شيئًا منذ الصباح.
أود أن أخبرها أن فعلتها تلك لن تؤثر في حبي واهتمامي بها، ربما كانت هذه هي الفرصة للتكفير عن ذنبي، وضعت الطبق على المنضدة بجوار فراشها ثم انسحبت من هذه الغرفة المقبضة، جلست بجوار نادر نتناول الطعام أراقبه وهو يُطعم صغيرنا بصبر: لماذا لا تصبر على شذا هكذا، أم لأنها ليست ابنتك؟
عاتبني بنظرته ولم يعقب، حاول أن يبدو هادئًا: بعد العشاء سأذهب لإحضار أمي. هل يمكن أن تأتي معي أنتِ وشادي بالطبع لأن الجليسة لن تأتي في منتصف الليل؟
- ولماذا آتي معك إذا كنت ذاهبًا ومعك صديقك يساعدك في نقلها؟
- أحتاج إليكِ معي.
قذفت الملعقة في الطبق بغضب: أنت تعاملني بشكل سيئ، تشعرني بالنقص، بالخلل، ألا يكفيك ابنتي وما تفعله معي؟
رفعت معصمي أمام وجهه: هي من فعلت بي ذلك، كنت أحاول أن أخفي الأمر عنك، ولكن خوفك ونظراتك تقتلني، أرأيت ما نحن فيه؟ ابنتي تحاول قتلي وتتسبب في جرحي، لا بد أنها تتألم كثيرًا لهذا ترغب في أن أشعر بالألم ذاته، الآن وقد علمت بما حدث ماذا يمكن أن نفعل؟
- نلجأ إلى طبيب، ابنتك يجب أن تعالج نفسيًّا على نحو صحيح.
- هل تريد أن يقولوا عن ابنتي مجنونة؟ وأخسرها إلى الأبد؟ ألم تقل أنت هذا من قبل؟
- ولكن هذا لصالحها وصالحنا، أنا أيضًا لا أريد أن أخسرك.
- سأهتم بها، يكفيها حبي لتعود أفضل، دعني أحاول، إذا فشلت فلنلجأ إلى الطبيب.

أطرقت رأسي بعيدًا عن مواجهة عينيه: اذهب الآن إلى أمك، ودعني هنا، شادي ينام على مقعده.
أصدر هاتفه تنبيهًا قصيرًا نظر فيه ثم تنهد تنهيدة طويلة: شريف يخبرني ألا أذهب الآن، سنذهب لإخراجها في التاسعة صباحًا.
- فلنذهب إلى النوم إذًا، أنا متعبة وشادي على ذراعي.

*****

في اليوم التالي كنا أنا وصغيري لا نزال نائمين، ناداني نادر لأصحبه إلى المستشفى، شعرت بثقل في عيني فأشفق علينا وتركنا، سمعت صوت باب المنزل يغلق خلفه، نظرت إلى ساعة الحائط كانت التاسعة، همست: تأخر نادر في النزول.
تقلبت في الفراش إلى جوار صغيري، احتضنته وأغمضت عيني ثم فتحتهما ثانيةً لشعور لحظي بالخوف، انتبهت لوجود جسد رجل ينام على الطرف الآخر للفراش، هل أحلم؟ ألم يخرج نادر منذ قليل؟
احتضنت شادي أكثر فهيئة هذا الجسد لا تشعرني بالأمان، انتبهت أحاول تبين إن كان هذا الجسد لزوجي أم لشخص آخر؟
لا أستطيع النهوض للتأكد حتى، استدار الجسد في اتجاهي، وجه عبد الحميد زوجي الميت يبتسم لي، شعرت بثقل في أطرافي، همس وابتسامته لا تزال مرسومة على وجهه: لماذا تركتِ ابنتنا تعاني؟ كنت أحبكما معًا، لماذا هدمتِ ما كان بيننا؟ حتى ابنتنا، ما تبقى مني ومن علاقتنا الجميلة قضيتِ عليها.
تبددت ابتسامته وحلت نظرة غاضبة شيطانية واستطالت يده لتصل إلى عنقي، ظل يضغط ليخنقني، استغثت ناديت نادر وشذا، أقترب من الموت ولا ينجدني أحد، حتى حضر صوت نادر: هادية هذا كابوس استيقظي.

انتبهت إلى نادر يجلس على طرف الفراش حاملاً شادي الصامت بين يديه متيقظًا في وداعة.

أعاد كلماته ليطمئنني: كنتِ تحلمين، اهدئي.

-كابوس كدت أختنق، ألم تخرج بعد؟

أطرق رأسه في حزن: خرجت وعدت.

نهضت من الفراش، كانت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة ظهرًا، كيف حدث كل هذا وأنا نائمة؟ خرجت معه إلى الردهة، هتفت عندما رأيت أمه نائمة في حجرتها: أتت ماما، هات شادي لنرحب بها.

وقف نادر ومنحني شادي، دخلت إلى أمه وقبلتها، سعدت كثيرًا برؤية شادي وأصرت أن يجلس معها قليلاً، تركته في أرضية الحجرة يلعب بجوارها، واتجهت للاطمئنان على شذا، حاولت إطعامها ولكنها منزوية صامتة، لا تجيب ندائي كأنها لا تسمعني ولا تمارس هوايتها في صناعة العطور والتطريز، لا أدري ماذا حدث لها؟ هل تشعر بالذنب لأنها آذتني؟ هل تعاقب نفسها؟

لا أدري كم يومًا مر على هذه الحال، ربما يومان أو ثلاثة، تحسنت حالة أمه كثيرًا، أصبحت تسير على قدميها إلى الردهة تشاهد التلفاز وتذهب إلى الحمام بمفردها، تداعب الصغير وتحمله وأحيانًا تطعمه، امتلأ البيت بالدفء والحنان بوجودها،

لم يكن وجودها أمرًا مرهقًا كما كنت أظن، وفي إحدى جلساتنا ونحن نلتف حولها حتى تنام همست إلى نادر:

ابنتي مكتئبة يجب أن نفعل شيئًا ننقذها به، إنها لا تأكل ولا تتحدث تظل في الفراش طوال اليوم.

حملنا أنفسنا إلى حجرتنا بعد أن غفت أمه، قال: الحل كما قلتِ أنتِ سابقًا في مصحة نفسية، فكري جيدًا في الأمر، هذا هو الحل المناسب.

- ولكنك قلت لي سابقًا إنني سأخسرها لو فعلت.

- ولو انتظرنا سنخسر كل شيء.

لم أنم هذه الليلة، كل ما كنت أفكر فيه هو عذاب قلبي وضميري وأنا أذهب بشذا إلى مصحة نفسية لتعالج فيها وحيدة، ولكن ألا يمكنني أن أذهب معها؟

صحيح أنني في البداية اقترحت أمر المصحة، ولكنه الخوف، لم تعد لدي القدرة على اتخاذ القرار أو تمييز الصواب في كل ما أفعل، بالتأكيد إذا ذهبت معها سيكون أفضل لي ولها، هل يسمحون لي؟

اتجهت نحو غرفتها أطرق بابها لم أسمع شيئا هذه المرة ولكن هاجمتني روائح عديدة، هل عادت لنشاطها وصناعة العطور؟، فتحت الباب ودخلت تعلو أنفاسي خوفًا وترقبًا: شذا.. أين أنتِ؟

فتحت خزانة الملابس وأخرجت رأسها منها: ماذا تريدين؟

ثم تراجعت إلى الوراء واختفت في الداخل.

اقتربت بحذر، قلت بحنان: خفت عليكِ.. ألم تصدقي بعد كم أحبك؟

اقتربت أكثر ببطء أحاول من بعيد أن أفهم ما تفعله في الداخل: حبيبتي.. ماذا تفعلين؟

أتاني صوتها بلهجتها العنيدة: كفي عن مناداتي بهذه الكلمة، ألم تفهمي أنني حاولت نقل كراهيتي لكِ بهذا الجرح في ذراعك؟

- لا يهم، سأتحمل كل هذا حتى أطمئن على حالك.

- أنا وجدتي بخير اتركينا في حالنا.

- شذا جدتك ماتت.

- نعم.. أعلم ذلك، ولكن يمكنني رؤيتها حتى بعد الموت، إنها تأتي لي وتجلس معي وأحيانًا يصحبها أبي.

كل يوم يزداد الأمر صعوبة، لا يوجد حل آخر يجب أن أنفذ اقتراح نادر: حبيبتي.. لا يمكننا مطلقًا أن نرى الموتى.

- هذا لأنكم لا تملكون سري.

- هل علمتك جدتك تحضير الأرواح؟

- أنا أصنع العطور وكفي عن هذا الحديث حتى لا يغضبوا منا ولا يظهروا ثانيةً.

شعرت بالتوتر، جسدي يرتعد من الخوف، فانسحبت من الغرفة أغلق الباب خلفي، لا يوجد حل آخر يجب أن تذهب إلى المصحة في أسرع وقت.

جلست في الردهة أفكر في الأمر عندما خرج نادر من غرفة أمه، اتجه نحوي ملهوفًا: حبيبتي لماذا تجلسين هكذا؟

كنت أحاول السيطرة على رجفة جسدي بلا جدوى: نادر.. يجب أن نذهب بشذا إلى المصحة في أقرب وقت.

- أخيرًا. وأين ذهب خوفك من خسارتها؟ أليس من الأفضل أن نكتفي بزيارة طبيب؟

- لا أرجوك لا تعدني إلى ذلك الخوف والشعور بالذنب، الأفضل لها ولنا أن تترك المنزل وتنتقل إلى مكان تلقى فيه رعاية مستمرة، المصحات ليست سيئة وستكون عن طريق صديقك الطبيب شريف، أليس كذلك؟

جلس إلى جواري وضمني: اطمئني بإذن الله سيكون أفضل قرار اتخذتِه في حياتك، هذا أفضل لها ولنا.

بادلته النظرات بعينين دامعتين راجيتين: أتمنى ألا يكون هذا القرار أنانيًّا هو الآخر.

مسح دمعة طفرت من عيني وربت على كفي يثني الدفء والطمأنينة: أنتِ لم تتخذي قط قرارًا بأنانية، هيا لنفطر.

- انتظر، أود أن أستكمل بنود موافقتي.

-ماذا؟

-ألا يمكنني الذهاب معها؟

-وماذا سنفعل دونك؟

-أرجوك يجب أن تساعدني.

-سأساعدك بالتأكيد.. هيا أنا جائع.

-ألن تذهب إلى العمل اليوم؟
-طلبت إجازة.. حتى أطمئن على حالكم.
-تقصد حال أمك، هي بخير، ألا ترى لقد استردت صحتها.
-إلى ماذا تنظرين؟
-شذا.. دخلت غرفة أمك.
-هذا جيد، ربما تجد في أمي بعض التعويض عن ارتباطها بجدتها الفقيدة.
-كيف تطمئن هكذا؟ شذا تتصرف بعشوائية دامية.
رفعت معصمي في وجهه: ألا ترى ما فعلته في أمها؟
-عداؤها معكِ أنتِ فقط وهذا سنعالجه بالتدريج، هي تحتاج إلى الأمان والدفء اللذين كانت توفرهما لها جدتها، لا تنسي أنها عاشت عمرها كله مع هذه الجدة لم ترَ غيرها، هي من علمتها كل شيء، التطريز والحياكة وكل ذلك، أما صناعة عطر الموتى الذي يستحضرهم هذا مجرد وهم يربطها بمن رحلوا ولا تصدق في رحيلهم.
-وكيف رأيتهم أنا في غرفتها؟
-إيحاء، مجرد إيحاء مع الضغط النفسي الذي تسببه لكِ.

*****

كنت متعبة فعدت لأستعين بجليسة شادي، وعندما حضرت انتهزت الفرصة لأخذ حمام هادئ، وقت الحمام هو وقت الاستجمام، أختلي بنفسي وأصفي رأسي من الأفكار والمخاوف، وضعت السائل الرغوي على رأسي، وفركت منابت شعري بينما يجري الماء البارد على كامل جسدي ليخفض من حرارته، أحرق السائل عيني فأغمضتهما، أحرقاني أكثر فصببت الماء عليهما وفركتهما كثيرًا وأنا مغمضة العينين، وعندما فتحتهما أخيرًا كان الظلام قد حل وحجب الرؤية تمامًا، ناديت الجليسة لأسألها إن كانت الكهرباء قد انقطعت، أن تحضر لي أي مصدر ضوء، فأجابني صوت أعرفه،

صوت زوجي عبد الحميد، أنا أذكر صوته جيدًا، قال:
اهدئي سيعود الضوء حالاً.
وبالفعل عاد الضوء ولكن الحمام لم يكن هو الذي أعرفه في بيتنا مع نادر، إنما حمام بيتي القديم مع عبد الحميد، همست: عبد الحميد؟
أجابني: نعم أنا هنا وأنتظرك.
كيف يحدث ذلك؟ هل يمكننا العودة بحياتنا إلى الوراء؟ ارتديت ملابسي بسرعة مرتبكة، ملامحه تظهر على الزجاج أعلى الباب وتنعكس على المرايا في الداخل،
يحمل الكلارينيت آلته الموسيقية، يقف بجسده النحيل الذي أحفظ هيئته عن ظهر قلب، اختفى الشيب من رأسه والخطوط الصغيرة أسفل عينيه السوداوين، تلمع سمرة وجهه في المرآة على يساري، وشعره الأسود المجعد المصفف إلى الخلف، يرفع الكلارينيت إلى شفاهه ليبدأ العزف، أحاول أن أصم أذني بيدي حتى لا أسمع موسيقاه، من أي جحيم عاد؟ ألم يمت؟ أين أنا وأين ذهبت حياتي مع نادر؟
أخشى أن أفتح الباب فأجده ماثلاً أمامي بالفعل، أخشى أن تكون حياتي مع نادر ما هي إلا وهم، أحلام يقظة أو نوم، أغمضت عيني أحاول العودة إلى حمام بيتي وابني، أغلقهما وأفتحهما بلا جدوى، سمعت صراخ طفل بجوار الباب، ابني شادي يناديني، هرعت إلى الباب أفتحه، فوجدت طفلة صغيرة لم تتجاوز الثلاث سنوات، شذا لا تزال صغيرة ببشرتها البيضاء وجسدها الصغير الممتلئ، وشعرها البني القصير المصفف بعشوائية وعينيها البنيتين الواسعتين، لا أدري لماذا كلما كبرت تبدلت ملامحها وازدادت نحافة واسمرارًا! احتضنتها وحملتها على كتفي، أحاول إسكاتها، ربما منحني الله فرصة لتصحيح الماضي، بقي عامان على وفاة عبد الحميد، يمكننا فعل الكثير فيهما لتأمين حياتنا حتى لا أضطر إلى التخلي عن ابنتنا وتركها عند جدتها.
يظهر عبد الحميد مرة أخرى بصوت موسيقاه الحزينة، كنت أخبره أن هذه الموسيقى توجع القلب، كأن آلتك تبكي وهي تعزف، فيقول: نعم الكلارينيت آلة باكية.

لم يكن له معاش أو عمل منتظم ليدر علينا دخلاً منتظمًا، وأنا أيضًا لم يكن عملي منتظمًا، ولم نعرف يومًا معنى الادخار، فالأموال الطائلة التي كانت بين أيدينا يومًا من حفلاته ورحلاتي كنا نبددها يومًا بعد يوم، لم نفكر قط في أن الغد سيتغير علينا ويصبح من الصعوبة الحصول على القدر ذاته من المال بنفس هذه المهنة، لم أفكر في أنني سأفقد مهنتي ودخلي، ولم يحسب هو للمرض الذي جعله عاجزًا عن العزف.

كان عبد الحميد يكبرني بعشر سنوات، عندما عرفته كان في الخامسة والثلاثين ولكن روحه دائمًا بعمر طفل، التقينا المرة الأولى في حفل موسيقي حضرته لفرقته في أحضان القاهرة القديمة، كنت أمارس عملي كمرشدة سياحية، ومن ضمن البرنامج هذا الحفل، لا أتذكر من أين بدأنا الحديث ولكني أتذكر أني نسيت العالم والناس من حولنا، وسرت معه في شوارع القاهرة حتى الفجر، يحكي لي عن حياته التي خلقها لنفسه وكفاحه وهو ابن قرية صغيرة في الدلتا، ولكنه يجد نفسه فقط عند العزف، أخبرني أنه بأي حال لا يعتمد في العيش على عزفه،

فهو يملك مشروعه الخاص مع أخيه يديره له أخوه لخبرته بالمجال، أما هو فيشاركه برأس المال.

تزوجنا بعد عامين، لا أعلم إلى الآن هل أحببته؟ هل كنت أعرف معنى الحب أصلاً في هذا الوقت؟ أنا أيضًا كنت أبحث عن الاستقرار بعيدًا عن بيتين ممزقة بينهما، بيت أبي وبيت وأمي المنفصلين اللذين يمارسان حقدهما تجاه بعضهما عليَّ.

أحمل ابنتي وأجوب المنزل الذي أعرفه جيدًا، يعلو رنين الهاتف الأرضي،

يظهر رقم بيت أمي على شاشة الإظهار، مشهد قديم في ذاكرتي كان يتكرر باستمرار، أرفع سماعة الهاتف، يأتيني صوت أمي المتهكم: أضعتِ ابنتك يا فاشلة؟ طوال عمرك فاشلة.

أضع السماعة بعنف: لماذا تكرهني أمي؟

أصوات كثيرة عند باب المنزل، وكلارينيت عبد الحميد لا تزال تصدح في المنزل بموسيقى حزينة تصلح خلفية لحياتي بعده، صوت طرقات عنيفة على الباب، ابنتي تصرخ على ذراعي، يأتي عبد الحميد ليأخذها ويهمس: لا تفتحي الباب.
طرقات الباب تزداد قوة وعنفًا، يحل الظلام مرة أخرى، ثم يعود الضوء، أجلس على أرضية الحمام عارية، أحتضن ملابسي وأبكي، نادر خلف الباب يناديني، يطرق الباب بعنف، أنهض متثاقلة، أحاول ارتداء ملابسي، أفتح الباب لأرتمي بين ذراعيه، أقبل وجهه وعينيه لأتأكد أنه هو هنا وأننا معًا ولست في حياتي السابقة، ثم عاد الظلام.

****

عندما أفقت وجدت نفسي في فراشنا. لم أتحدث مع نادر في شيء عما رأيت، كان علينا أن نرتب كيف سيعيش نادر دوني ويرعى شادي وأمه وكيف سنقنع شذا بالانتقال إلى المصحة. استردت أم نادر بعضًا من صحتها وأصبحت تستأنس بوجود شادي وتصر على أن يغفو في فراشه بجوارها، اطمأننت لرعايتها له، بقي اقناع شذا، وقفنا أنا ونادر أمام بابها، طرق الباب وفتحته وأنا أناديها، رائحة مرة أخرى، لا أعلم ما هذه الرائحة ليست مألوفة بالنسبة إلي، ولكن ملامح نادر تغيرت وارتبك عندما التقت عيناه بعيني وتجلى الشجن في صوته كمن استعاد ذكرى حزينة، ارتجفت فسألته: ماذا؟

– إنها رائحة أبي، وقوية على نحو لا يصدق.

– أرأيت؟ ألم أحذرك؟ هذه نتيجة زيارتها لوالدتك.

– هذا جنون يا هادية، لا بد أنها أخذت من أمي بقايا زجاجة عطر.

انسلت شذا من الركن الذي تجمع فيه أشياءها الغريبة، ووقفت في منتصف الغرفة: أعلم أنكم ستأخذونني إلى مكان آخر بعيدًا عن هذا المنزل، كنت أنتظركم وأتطلع إلى الذهاب إلى هذا المكان، لذا فأنا أعد حقيبتي ولكني أردت أن أجري تجربة أخيرة.
اتجهت نحو نادر: بالمناسبة والدك شخص لطيف، يشبهك كثيرًا،

لقد جلس معي وعلمني كيف أكتب بالخط العربي، طلب مني أن أكتب لوحة بآية قرآنية.

هل كان والدك معلم خطوط؟ ولكنه ليس ماهرًا في الشطرنج كأبي.

ثم وجهت حديثها لي: والدك هو الماهر في الشطرنج، لقد هزم أبي.

همست محاولة صرفها عن هذا الحديث: ما هذه الصرر؟ لماذا تجمعين أمتعتك وملابسك في أقمشة؟ لديكِ حقائب جميلة.

نظر نادر حيث أشير، فبجوار حقيبة شذا السوداء الممتلئة بملابسها وُضعت صرر من القماش، تظهر بداخلها أشياء تشبه بقايا بشرية، لم أتبين الصورة وأردت أن أستفهم إن كان ما أراه حقيقيًّا، وبمجرد أن بادرتها بسؤالي أمسكت شذا بإحداها وحلت عقدتها وجلست فوق الفراش وافترشته بأشيائها تلك تخبرنا بثقة: هذه بقايا جدتي.

أدار نادر نظره بيني وبين شذا مراقبا لما تفعله شذا التي تابعت ببرود: هذه مسبحتها، خاتم، عقد قديم، قطع من القماش تحمل عرقها، خصلة من شعرها، هذه العلبة بها أظفارها، قارورة عطر شبه منتهية، من مثل هذه الأشياء أصنع عطوري لأستعيدها، أما هذه فلأبي...

-كفى.

هتف نادر ليسكتها. ارتعد جسدي فضمني إليه وتابع: انتهي من تحضير حقيبتك بسرعة فسنغادر في الصباح.

سحب نادر يدي ليخرجني معه ولكني رجوته بعيني أن يذهب ويتركني معها، دنوت منها: هل تعلمين إلى أين نحن ذاهبتان؟

أومأت بالإيجاب.

-ولكني هذه المرة لن أتركك، سأذهب معكِ.

-وماذا ستفعلين مع شادي؟ هو يحتاج إليكِ أكثر فما زال صغيرًا.

-نعم أعلم، ولكن سيظل مع نادر وجدته.

-مرة أخرى، تتركين ابنك لجدته مرة أخرى؟

-أنا أحاول أن أصحح خطأي بتركك.

-ولكن ليس بخطأ آخر.

-على الأقل سأذهب معكِ حتى أطمئن عليكِ.

جثوت على ركبتي أمامها أداعب وجنتها بأصابعي، أحاول أن أنظر في عينيها لأستشف حقيقة مشاعرها. قالت: هل تفعلين هذا لأنكِ تحبينني حقًّا؟

- بالطبع يا حبيبتي.

- هل تحبينني كشادي؟

- وأكثر صدقيني.

- أصدقك.

ضممتها بين ذراعي، أخيرًا شعرت بأن ابنتي عادت إليَّ أو عاد إليَّ جزء منها، هل الطريق إلى المصحة هو الطريق الصحيح للتعافي وحل ما بيننا من عداء وخلاف؟ أم أنه الطريق الذي سيسلبها مني مرة أخرى؟ لا أعلم ولكن كل ما حولي يدفعني إلى هذا القرار، تمامًا ككل القرارات التي اتخذتها في حياتي لم أكن أملك حيالها فرصة الاختيار، كنت مدفوعة إليها دفعًا بلا إرادة أو حتى الحق في التفكير.

*****

أشعر أن هذا اليوم قبل أن نأخذ شذا إلى المصحة يوم طويل لا ينتهي أبدًا، كلما انقضت ساعاته عاد ليبدأ من جديد، كلما تذكرت تلك الأشياء الغريبة في حوزة شذا ارتعش جسدي، فنهضت لآتي بغطاء آخر لأتدثر أكثر، شادي إلى جواري نائم ونادر ليس هنا، ربما يعمل في في الخارج بجوار التلفاز، ذهبت إلى الغرفة التي تنام فيها أمه، لم أجده في الردهة، دخلت على أطراف أصابعي أفتح الخزانة بهدوء، حملت الغطاء فلمحت أسفله شيئًا يلمع في عتمة الخزانة انعكس لمعانه على عيني،

الكلارينيت آلة عزف عبد الحميد، شهقت، كانت أم نادر تتقلب على الفراش، أحاول ألا أصدر صوتًا حتى لا تستيقظ، أغلقت الخزانة مرتبكة تتسارع نبضات قلبي، اقتربت منها، جسدها مغطى بالكامل، بدأت ترفعه بيدها عن رأسها قليلاً لتكشف عن وجهها، لأجد أن الوجه النائم ليس لأم نادر بل لأم عبد الحميد، صرخت فقالت: اصمتي.

نهضت من الفراش وأمسكت بذراعي، حاولت الإفلات منها.

قلت: ماذا تريدين؟ أنا لم أتسبب لكِ في أي أذى، بل أنتِ من آذيتني أنا وابنتي.

قالت وهي تعتصر ذراعي بكفها القوية: أنا أحب شذا ولم أسبب لها أي أذى، كانت معي سعيدة، اسأليها ستجدين أنها متعلقة بي أنا.

-أجل، فقد جعلتِها تكرهني.

-وكيف لا تكرهك؟، تركتِها وتزوجتِ برجل آخر بعد أبيها وأنجبتِ طفلاً بديلاً ونسيتها.

-أنا لم أنسها قط.

-فلنعقد محاكمة ونرى.

-أي محاكمة؟

ظهر رجلان خرجا من الجدار اتجها نحوي وقيداني من يدي وقدمي وحملاني إلى الفراش وقيداني فيه، ثم ظهر عبد الحميد يحمل آلته الموسيقية، يعزف على الكلارينيت بانسجام غريب لا يليق بالمشهد.

أحاول أن أميز اللحن الذي يعزفه، لا تسعفني ذاكرتي لأميز، إنها موسيقى كئيبة، موسيقى تصويرية لأحد الأعمال الدرامية المدبلجة، هذه الموسيقى تخلع قلبي، هل تحاول أن تعذبني بعزفك؟

أصرخ به ولا يجيب، يستمر في العزف ليمزق روحي، تبدأ أمه الحديث: سنحاكمك.

قلت: وكيف تكونين أنتِ الخصم والقاضي؟

-لن أكون القاضي، القضية رفعت للمختصين.

-وأين هم؟

-حولنا.

-ولماذا تحاكمونني؟ ما الجريمة التي فعلتها؟

تظهر شذا من خلف جدتها: أنا، جريمتك هي أنا، هل تذكرتِها الآن أم لا؟

-ياحبيبتي لقد أخبرتك كثيرًا لماذا فعلت هذا، لم يكن بإرادتي، ولو أردتِ أن تحاكمي أحدًا فجدتك هي المسؤولة الأولى.

توقف عبد الحميد عن العزف أخيرا، وضع الكلارينيت في ركن الغرفة مستندة إلى الحائط، واتجه نحوي قائلاً:

لقد تقاعستِ يا هادية عن واجبك ناحية ابنتنا، كان عليك أن تعودي إلى بيت أمي تعيشين معها، أنتِ صرتِ امرأة وحيدة بلا عمل، لماذا عدتِ للعيش في هذه المدينة وحدك وبهذه الظروف؟ لماذا لم تجلسي مع أمي وابنتك؟ أجيبي يجب أن أفهم،

أمي لم ترفض وجودك بل طلبت منكِ ذلك ورحبت بكِ، لقد تركتِ المكان يا هادية قبل انتهاء مدة العزاء، هربتِ من ابنتك ومني ومن ذكراي، لماذا يا هادية؟ أنا أحببتك.

هتفت به: أنا لم أقبل العيش في هذه القرية وأنت على قيد الحياة، كيف سأعيش فيها وأنت ميت؟ أنا لا أطيق هذه الحياة ولا يمكنني التكيف مع وضعها.

تدخلت شذا بنظرتها المنكسرة تلومني: لكنك رغم ذلك قبلتِ أن أعيش أنا هذه الحياة ونسيتِني تمامًا، حتى اتصالاتك توقفت، أو للإنصاف أصبحت على فترات متباعدة حتى لم تخبرينا بأمر زواجك.

-أنا لم أقصد هذا، فقط أردت أن أتجنب المشكلات مع جدتك يا شذا، وصدقيني كنت سآتي لآخذك لتعيشي معنا بعد أن نرتب أحوالنا.

-أنتِ كاذبة.

كرروها جميعًا ثم ذهب عبد الحميد إلى ركن الغرفة الذي ترك فيه آلته الموسيقية،

ولكنها تحولت في يده إلى سكين كبيرة نصلها مضيء، اتجه بها نحوي ووضع حدها على رقبتي وبيده الأخرى يمسك شعري وبدأ النحر، ظللت أصرخ وأنا أحاول تخليص نفسي من بين يديه ولكني مقيدة.
صحوت على صراخ طفلي وهو يمسك بشعري ويشده ويبكي وإلى جواره نادر وقد استيقظ على صوت صراخنا، ناولني كوبًا من الماء ثم قال: قومي لنستعد، سنذهب اليوم.

*****

شعرت بمدى الارتياح الذي شعر به نادر وحاول إخفاءه عني حاملاً حقيبة ابنتي، ابني في فراشه وأمه تودعنا، أوصيها به، أهرب سريعًا حتى لا يصحو ويراني وإلا سيبكي حتى تتقطع أنفاسه.
"سأبقى مع شذا هذه الليلة فقط".
كررتها على مسامع أم نادر ولنادر نفسه ولنفسي ربما، هل أحاول طمأنتهم أم تهدئة قلقي بهذه الكلمات؟ لا أدري، لماذا أشعر بكل هذا الخوف والقلق، إنها ليلة واحدة لتعتاد المبيت هناك ولا تشعر بالوحدة في أول ليلة لها في المصحة، يجب أن أتحمل مسؤوليتي كاملة هذه المرة، يجب أن أرافقها في هذه اللحظات، هذا بالتأكيد سوف يساعدها على الشفاء.
في الطريق تحدث نادر مع شريف صديقه الطبيب الذي رشح له صديقًا آخر يدير هذه المصحة، سمعت بعض الكلمات فقلت متخوفة: الطبيب لا يوافق على مرافقتي لابنتي، أليس كذلك؟طمأنني بأنه على العكس وجودي مهم ويمكنني المكوث أكثر.
–ولكن شادي، هل ستتحمل عدم وجودي ومسؤوليته مع رعاية والدتك؟
– لا تقلقي سنكون بخير، الأهم أنتِ وشذا بالطبع.
وصلنا إلى المشفى أو كما نقول مصحة لعلاج الأمراض النفسية والإدمان، تبدو كمنفى

إلا أنها في الداخل مستعمرة، بناء يشبه الفيلا بحديقة كبيرة وبوابة حديدية وأمن مشدد، تشبه السجن حتى لو داخلها جنة، كيف سأترك ابنتي هنا؟

سأظل معها مهما طالت المدة، أمسكت بكف شذا، شعرت بنبضات قلبها وخوفها، نظراتها قاتلة، تتوسل إليَّ ألا أتركها، فأجيبها بالصمت ذاته: لا تقلقي حبيبتي لن أتركك أبدًا بعد اليوم.

دخلنا الحجرة مع ممرضة رفيقة لنا وأخبرني الطبيب الذي كان في استقبالنا أنها ستظل رفيقة لشذا، أجلستها على الفراش بعد أن تركت يدي بصعوبة، بدأنا في تفريغ محتويات حقيبتها في الخزانة الصغيرة، أبقيت الصرر الغريبة مخفية في الحقيبة أسفل الخزانة، ودعت نادر على الباب، كان دامعًا وغريبًا كأنه سيتركني هنا إلى الأبد، تابعته من الشرفة حتى غاب، ثم بدلنا ملابسنا أنا وشذا التي ظلت شاردة في فراشها. ظهر اسم نادر على شاشة الهاتف بين يدي، أتاني صوته: الطبيب سيأخذ الهاتف بعد قليل هذه قوانين المصحة.

أجبته متفهمة: لا توجد مشكلة، هي ليلة.

- نعم.. فقط ليلة.

أغلقت الهاتف فمدت لي الممرضة يدها وضعت فيها الهاتف وابتسمت.

نهضت شذا وتكومت إلى جواري في الفراش، داعبت شعرها حتى أتت الممرضة بإبرة وعقار سألتها: ما هذا؟

-مهدئ.

-ولكنها لا تحتاج إليه، هي ستنام.

- يجب أن تأخذه الآن.

كفها ككفي وذراعها كذراعي وألمها بداخلي، وحزنها في قلبي، هي ابنتي وهذا خطأي الذي أدفع ثمنه، هو ذنبي الذي لا أبرأ منه وليس له غفران..لذا أشعر بألمها ويسري العقار الساري في جسدها في جسدي.

القسم الثاني

(شذا)

مرة أخرى يا أمي تتخلين عني وتتركيني هنا بمفردي في غرفة رمادية باردة وأشخاص غرباء لا أعرفهم وفتيات غريبات وسيدة غليظة وشاب يجلس ويطلب مني أن أروي له ما حدث. لا أحب الحديث مع الغرباء، لقد عشت حياتي في بيت جدتي تمنعني عن لقائهم، كنت أتسلل لأتنصت خلف الأبواب، أخاف الاقتراب، وأرتبك من المصافحة، تتعثر خطواتي من مراقبتهم لي ونظراتهم المرتابة، لذا أجلس دائمًا في حجرتي أنتظر انتهاء جدتي من لقائهم، أحب جدتي، أحب حديثنا وجلساتها الدافئة التي جعلتني أدمنها وأتعلق بها، لا أدري كيف كنت سأعيش مع أمي ولا أرى هذه السيدة المحبة أبدًا، لقد أعادت جدتي أبي إلى الحياة بعد وفاته، فملأت حياتنا بالدفء والخير والأمان. يطل ذلك الشاب من جديد، يقدم لي نفسه: شاهر.

يسحب مقعدًا ويجلس قبالة فراشي، يعيد السؤال نفسه: ماذا حدث؟

فأجيبه: تركتني أمي.

تدور في رأسي الكثير من الأفكار والكلمات، صوت غريب يحدثني بعنف: لحظة الترك هذه هي بداية اللعنة، بداية كل شيء، الألم الذي لا يمكنني أبدًا التخلص منه، الحدث الذي لا يمكنني تجاوزه، لقد تركتني أمي وعمري خمس سنوات، هل تفهم المأساة؟

يعود ليسأل السؤال نفسه: وماذا حدث؟

يركز عينيه البنيتين على عيني وأركز عيني العسليتين على شيب لحيته الخفيفة، أنهض لأنظر في المرآة، هل هذا وجهي؟

كانت عيناي واسعتين وأسناني جميلة كحبات اللؤلؤ، في صغري كانت بشرتي بيضاء، لا أدري لماذا كلما ازددت نحافة مال لوني للاسمرار، لم أفهم هل شعري أسود أم بني داكن كما يقولون؟

كنت أصففه في الشمس لأراه بنيًّا لامعًا، تناديني جدتي: يا عسلي.

هل تصف لون بشرتي أم عيني؟ أسمع صوتها، وبرودة تسري في جسدي ويد دافئة فوق رأسي، أخيرًا يا جدتي عدتُ إلى عالمك الطيب الحنون، هل كنت نائمة وأحلم بكل ما حدث؟ هل كان فراقك كابوسًا ثقيلاً وأفقت منه؟ لا أدري، ولكني الآن أسير في الأرض الخضراء حول المنزل، لا أعلم لماذا كانت أمي ترى منزل جدتي فقيرًا ومتواضعًا، فقد كان بالنسبة إليَّ قصرًا، هو بالفعل قصر، فالغرفة التي كانت تنام فيها أمي هي الغرفة الطينية الوحيدة الملحقة بالمنزل، أما باقي المنزل فقد كانت جدرانه من حجارة ضخمة بيضاء. تقول جدتي إن جدي كان عمدة القرية ووالده كذلك، وهذا المنزل مميز بين منازل القرية الفقيرة، فعندما تزوجت كان المنزل الوحيد في القرية ذا الطوابق الثلاثة وحديقة حوله، لم يكن لجدي إخوة لذا فقد ورثه بمفرده، أما أبي فكان له أخان ورث كل منهما طابقًا في هذا المنزل، ولجدتي غرفة تشبه غرف الأميرات فراشها من النحاس الأصفر اللامع، وظهر الفراش مبطن بساتان أحمر، في منتصف غرفتها لوحة لامرأة جميلة تجلس على الأرض الخضراء على طرف نهر، تنتظر شيئًا ما، أو شخصًا ما، جدتي ترفض أن يدخل أي شخص غرفتها، إلا أنا سمحت لي بالدخول والنوم إلى جوارها، ملحقة بغرفتها غرفة أخرى صغيرة نسبيًّا، يفصل بينهما باب كبير مزدوج، أما باب غرفة جدتي فقد كان ضخمًا وثقيلاً وقديمًا جدًّا يشبه أبواب المساجد القديمة التي نراها في التلفاز وقت الأذان.

-جدتي هذا الباب ثقيل جدًّا، افتحي لي، لماذا هو ثقيل هكذا؟

أجابتني وهي تجذب الباب نحوها لتدخلني وتغلقه خلفي: زوجات أعمامك فضوليات ولا يحترمن الخصوصية خلف الأبواب المغلقة، هذا باب قديم وجدته عند الحاج حميدة النجار ضمن مجموعة أبواب رائعة، يقول إن عمره مائة عام، ركَّبته حتى لا تفتح إحداهن الباب لسبب واهٍ وتفتح علينا الباب وترى ماذا نفعل، لو فكرت إحداهن في الدخول سيمنعها ثقل الباب، تعالي سنجلس في الغرفة الداخلية لنطرز المفارش.

-ماذا سنفعل بكل هذه المفارش؟ هل سنبيعها؟

-نبيع؟ وهل نحتاج إلى المال؟ أنا أعطيها لفتيات لا يملكن حق تجهيز أنفسهن، كل ما أريده أن تتعلمي كل هذه الأشغال الجميلة وتستمري في هذا من بعدي.

-أنا مثلك أحب التطريز والحياكة، لا أحب المدرسة وأحلم أن أجمع كل الفتيات أعلمهن وأبني مصنعًا ليعملن فيه. ما رأيك؟

-عندما أموت سيكون هذا المنزل ملكك ويمكنك أن تديري مصنعك في هذا الطابق فهو حق والدك.

-ولماذا لا نفعل ذلك الآن؟ ثم إنكِ وعدتِني أن نظل معًا إلى الأبد.

-نعم سأظل معكِ إلى الأبد، ولكن هذا لا يمنع من الذهاب إلى المدرسة أيضًا.

-ياجدتي.

- انتهي من واجبك أولاً ثم نبدأ التطريز.. لا تناقشيني.

*****

في الصباح أصحو لأجد جدتي تجلس على سجادة الصلاة حتى الشروق ترتل القرآن وتذكر الله. لجدتي خادمة تحضر لها الطعام وتنظف الغرف، وللخبز يوم في الأسبوع تأتيها سيدتان تخبزان وتشرف هي عليهما، لم تعمل جدتي في المنزل سوى أشياء بسيطة، لم تقف أمام الموقد لكنها كانت تهتم بأرضها والمواشي والطيور التي تملكها، وتطعمها بنفسها. لجدتي عينان زرقاوان غائرتان غطى جمالهما نتوءات جلدها وتجاعيده العميقة، تنهض ممسكة بالمسبحة تفتح باب غرفتها الداخلية، ذلك المعمل السري الممتلئ بكرات الخيوط ولفائف الأقمشة الحريرية وزجاجات عطر، وبقايا ورد مجفف وأشياء كثيرة لم أفهمها بسهولة، موقد صغير موضوع فوق منضدة خشبية عريضة بجوار النافذة تصنع عليه جدتي عطورها النفاذة، توقظني لتعلم أول درس، أحمل معها الزهور البيضاء والملونة، أسألها بشغف وفرح طفولي:

هل سنصنع عطرًا من هذه الزهور؟

-سأعلمك كيف نستخلص الزيت العطري من هذه الزهور وغيرها، مهنة أخرى ستعرفين قيمتها فيما بعد.

بعد الانتهاء من ذلك الدرس نذهب معًا إلى حظيرة المواشي، تجلس جدتي لتتحدث مع أشخاص لا أراهم.

فتقول جدتي: كيف يا ابنتي لا ترين جدك؟ كنتِ تشاهدينه دائمًا وأنتِ صغيرة.

لم أكن أشعر بالخوف مما تقوله جدتي، فأنا حقًّا أتذكر أنني كنت أرى جدي وأحيانًا أبي، وكنت أتعامل معهما على أنهما هنا معنا أحياء بشكل آخر، هذا ما كانت تخبرني به جدتي دائمًا.

الركض في الحقول مع أبناء وبنات أعمامي كان أفضل وقت للعب، والجلوس بجوار جدتي عصرًا نحتسي الشاي بجوار بطاتها السمينات كان أسعد الاوقات، ولكن الأمتع من كل ذلك هو حفظ سر جدتي في صنع عطور الموتى، تحفظ لديها بصمة كل شخص، شيئًا من جسده أشياء أخرى تخصه تحفظها بطريقة خاصة حتى لا تفقد خواصها، ثم تخلطها مع روائح كان يستخدمها هذا الشخص في حياته، لتنتج عن ذلك رائحة الشخص نفسه، وأنفاسه إن أردت الدقة، بل هو نفسه يحضر أمامك بروحه، تحكي لي جدتي أن تجربتها تلك بدأت عندما مات جدي وقد كان مريضًا، وكانت من حبها له تقص أظفاره وتحلق رأسه ولحيته حتى قطرات من عرقه، ثم تحتفظ بكل ذلك حبًّا فيه لأنها تعلم أنه يومًا ما لن يبقى منه أثر لمرضه الشديد، لم تكن تفكر سوى في بعض السلوى بعد رحيله، وبعد وفاته في ليلة غلبها فيها الحزن والافتقاد والوحشة، خلطت قطعة من ملابسه تحمل قطرات من عرقه ببعض القطرات من زجاجة عطر داوم على استخدامها، ثم أشعلت بعض الفحم في الحجرة ووضعت بخور العود الذي كان يحبه وكانت تستخدمه دائمًا في وجوده، مع قراءة بعض أورادها الصباحية، فوجدته حاضرًا أمامها عند أذان الفجر. همست لنفسها: أشيطان يحضر في الفجر؟

فأجابها: بل روح يا غالية.

-وهل تعود الأرواح يا سعد؟
-الأرواح حولك في كل مكان، ولكننا نخشى أن نصيبكم بالفزع.
-أي فزع يا رجل؟ في رؤيتك السلوى والراحة.
- هذا من شدة حبك وصبرك، ولكن البشر لا يفكرون هكذا، تصوري بمجرد أن يحدث الموت تصبح رؤية ذلك الشخص الميت مرة أخرى في حياتك شيئًا خارقًا ومخيفًا، رغم أنه ذاته هو أحب شخص إلى قلبك وبالأمس كان هنا معك يشاطرك الفراش.
-تعال أنت ولن يصيبني الفزع، تعال كل يوم.
-يمكنك استدعائي بالذكر الطيب مع هذه الرائحة.
بعد هذا اليوم ظلت جدتي تفعل ذلك بتفاصيله، تحفظها عن ظهر قلب وتكررها لتراه، وكان يظهر بالفعل ولكن وجوده بدأ يخفت بالتدريج حتى أصبح يأتي كطيف مبتسم فقط لا يتحدث معها مطلقًا، لذلك ظنت جدتي أنها فقدت قدرتها على استحضاره، ولكن عندما أتت إليها إحدى النساء تحكي لها مشكلتها قررت مساعدتها باستحضار زوجها الميت، وأتى الرجل بالفعل وتحدث إلى زوجته فسعدت جدتي كثيرًا لاستعادة قدرتها تلك، وعلمت أن أمر جدي خاص به وحده. ذاع صيتها في القرية الصغيرة، منهم من أصبح يخشاها، ومن السيدات من كانت تلجأ إليها ولكن جدتي كانت ترفض أن تعمل في هذا، هي فقط كانت تريد استعادة زوجها.

******

أفتح عيني على بصيص ضوء أبيض ينفذ من فتحات صغيرة في النافذة الخشبية، وتتسلل إلى أنفي رائحة الفانيليا والقرفة واللبن، دخلت جدتي تحمل صينية وهي تناديني: قومي لتفطري.
أحتضنها وأقبلها، أشتم رائحة جسدها الممتلئة بالفانيليا وزيت العنبر والمسك الذي تحبه، يأتي لها به أحد أبنائها من بلد المسجد الحرام، تضحك لتقبيلي لها،

أرفع الغطاء عن الصينية فأشهق جوعًا وإعجابًا: أنتِ من أحضرتِ هذا الفطور الجميل؟ وأين حليمة؟

-حليمة لا تجيد في المطبخ سوى قلي البيض، ستصنع فطائر الفانيليا وكيك التفاح بالقرفة!.

-أنا أعشق هذا الفطور من يديكِ، ولكن ماذا حدث اليوم لتأتي لي بالفطور؟

ابتسمت: مزاجي جيد.. انتهي من فطورك وسأذهب إلى حجرة الجلوس هناك ضيفة تنتظرني.

سرت خلف جدتي حتى الغرفة المحرمة المخصصة لاستقبال الزوار من المعارف والغرباء، غرفة واسعة تعلق بها لوحات كنافاة لامرأة بسيطة برداء منزلي يكشف عن كتفيها تحمل رضيعها بينما تنتظر شخصًا ما على عتبة الباب، وأخرى لصغار على الشاطئ يأكلون الخبز ويلوحون لصياد يلوح لهم في قاربه من بعيد، كلها لوحات تحمل شيئًا من الانتظار والحزن.

تسلل صوت الضيفة من خلف الجدار إلى أذني: أنتِ تعلمين أن ابني توفي منذ أسبوع، لقد با ع جزءًا من أرضه ليشتري بضاعة لمشروعه في المدينة مع شريك لا نعلمه ولا نعلم أين ذهب المال فقد تدمرت سيارته في الحادث.

أسمع صوت مسبحة جدتي تمررها بين أصابعها: ذهب المال مع صاحب المال يا فهيمة ماذا سنفعل؟

-ولكن الحل في يدك.

-كيف؟

همست بارتجافة في صوتها: أنتِ تستطيعين إحضار روحه.

فزعت جدتي وهمت واقفة: لا تقولي هذا، لا تكرري تلك الشائعات التي انتشرت عني في القرية وجعلتهم يظنون أنني معالجة روحانية، أعمل في السحر والأعمال السوداء حتى تجنبني الكثير من أهل القرية بسبب هذه الاتهامات.

-أنا أعلم أن هذا سرك ولا تفصحين عنه مطلقًا إلا لشخص يستحق، أخبروني أنكِ تفعلين هذا مع القليلين، ليس لحل أمور دنيوية عالقة ولكن فقط للترويح عن قلب مكلوم وأم ثكلى.

-أنتِ تبحثين عن مالك ومثل هذه الأشياء ولن تجدي لها حلاً معي، لن تلتقي ابنك ليتحدث معك في أمور مادية ودنيوية كتلك، صدقيني لن تصلي لشيء ولن أستطيع مساعدتك.

-خذي هذا وحاولي.

-ما هذا؟

-قصاصات شعره وعطره، أستحلفك أن تفعلي شيئًا ليبرد قلبي.

-احتفظي بها، سأفكر في الأمر وإذا جد جديد سأبعث لكِ.

خرجت جدتي تأخذ بيد السيدة المسنة إلى الباب، فركضت إلى الغرفة ألتهم الفطور حتى دخلت جدتي: ألم تنتهي من فطورك بعد؟

-لماذا لم تساعديها؟ أليست هذه هوايتك وعملك الذي تحبينه وتعلمينني إياه؟ أليس هدفك أن كل قلب فقد عزيزًا وتألم يجد بعض السلوى في وصول طيفه وشعوره بوجوده مرة أخرى؟

-أنتِ قلتِ.. مجرد طيف يظهر ويختفي وقد لا يتحدث مطلقًا، كيف سيساعدها ذلك في تفسير أمر دقيق وفيه مال وشريك؟ لا أريدها أن تأمل ثم يصيبها الإحباط والحزن.

-ولكن هو حالة خاصة فقد مات في حادث وروحه ستكون قلقة الآن، قد يكون في انتظار حركة كتلك ليظهر ويخبرها ولا يكتفي بأن يكون مجرد طيف.

-من أين جئتِ بهذا الكلام؟

-لا أعلم.. أنا أفكر معكِ، فكري في الأمر حتى لا نزيد من ألم هذه السيدة، أنتِ دائمًا تجبرين أحزانهم.

-سأفكر، أما الآن فتعالي معي لنبدأ العمل في بعض المفروشات.

قلت بتأفف: مفروشات ثانيةً؟ ومتى ستعلمينني صناعة العطور؟

-لقد علمتك الدرس الأول.

-نستكمل باقي الدروس إذًا.

-ليس الآن.. هذا العمل مسؤولية وأنتِ ما زلتِ صغيرة.

-لست صغيرة، لقد أتممت عامي الخامس عشر منذ شهر.

ضحكت جدتي: عندما تصلين للعشرين.

-لا يا جدتي أرجوكِ، علميني وسأساعدك.

-غدًا سأفكر في الأمر أما اليوم فمفروشات، قومي معي.

العمل مع جدتي ممتع رغم كل الإرهاق والتدقيق، رغم حرصها ونهرها الكثير لي كانت تتوقف لتصلي وتجلس فوق سجادتها تذكر ثم تعاود العمل.

بعد أن انتهينا من تطريز المفارش بنقشات ورد زاهية، زارتنا فتاة قصيرة ونحيلة وعيناها جميلتان بشكل جعلني لا أستطيع أن أرفع عيني بعيدًا عنها، حملت جدتي كل المفارش التي انتهينا منها في ثلاثة أيام ومنحتها لها، تهللت الفتاة وقبلت يد جدتي وقبلتني.. أشعرتني فرحتها وامتنانها بسعادة غامرة، وكذلك بفخر نحو جدتي وروحها الخيرة الرحيمة، نقشات جدتي على الأقمشة ليس لها شبيه في جمالها وإتقانها وقد تعلمت منها ذلك.

ذهبت إلى فراشي أحمل قدمي بتثاقل، تجلس جدتي على طرف الفراش: تعلمين يا شذا.. أنتِ بنت ذكية، غدًا سأبدأ معكِ باقي دروس صناعة العطور.

قفزت فوق الفراش قفزات سعادة ثم تحلقت بذراعي حول كتفها، احتضنتها وغمرتها بالقبلات بينما تضحك وتربت على ذراعي تهدئني: كبرتي على هذه الحركات ياشذا وأنا أيضًا كبرت وجسدي لم يعد يتحمل لعبك.

-اعترفتِ أني كبرت الآن.

-نعم اعترفت، نامي وفي الصباح سنعلم كم كبرتِ.

*****

كنت أجلس في حجرة جدتي أنقش بالإبرة والخيوط الملونة وردة على طرف مفرش كبير،كانت جدتي قد ذهبت إلى السيدة فهيمة وعندما عادت جذبتني من يدي: قومي معي هناك مفاجأة.

دخلت معها معملها الصغير، الغرفة التي نرتب فيها المفارش، وقفت جدتي أمام المنضدة العالية بجوار النافذة توقد النار في الموقد النحاسي وتشعل الفحم بجواره ثم تضع إناء فوق الموقد، سر جدتي كله في هذا الإناء النحاسي الذي تصنع فيه عطر الموتى.

لا يمكنني وصف سعادتي وقد سمحت لي جدتي أخيرًا أن أتابع خطواتها وأتعلم منها مهنتها السرية، الأمر بالنسبة إليَّ ليس فقط أن أتقن تلك اللعبة مع الأرواح وأجمعهم حولي، ولكن السعادة كلها في أنني حصلت على ثقة كبيرة من جدتي لم يحصل عليها حتى أبناءها، شعرت أن الأمر صعب إتقانه والتفاصيل كثيرة: كيف يمكنك ضبط المقادير؟ وكيف تتأكدين من أن ما فعلتِه صحيح وأن هذه بالفعل رائحة هذا الرجل؟

-هذا سر المهنة ستتعلمينه بالتدريج.

-ولكن أنتِ تعلمين سابقًا رائحة جدي أو أبي، كيف ستحكمين على نجاح التجربة مع الغرباء؟

-سيظهر لنا.

-من؟

-صاحب الرائحة.

-هل يحدث الأمر بهذه السرعة؟

-ليس دائمًا، ولكني لا أعد تجربة، أنا أعرف بالضبط ما أفعله لا مجال للصدفة والتجريب، لا تتعجلي الأمر.

-هل يمكنني إحضار أبي بنفسه؟

-بالطبع.. أنتِ امتدادي وسأعلمك كل هذا.

-وهل سيتحدث معي؟

-لا تتوقعي أن يتحدث دائمًا، يكفي وجودهم.

رفعت الإناء عن الموقد ثم وضعته على إناء الفحم، فتحت النافذة أمامه وقربته منها، كانت النيران تعلو مع هبوب الرياح ثم تخفت وتعود لتعلو، تسللت إلى أنفي رائحة نفاذة، عطر فاخر وجذاب، ومن بين سحب الدخان التي ملأت الغرفة ظهر وجه رجل أربعيني يقف في زاوية الغرفة، عابس الوجه غاضب يوجه نظراته الحانقة إلى جدتي، صبت جدتي بعض المياه على موقد الفحم لتطفئه فور رؤيتها له ثم أمسكت بزجاجة وصبت في داخلها محتويات الإناء النحاس، انقشعت سحب الدخان وتبدد وجه الرجل معها، همست لي جدتي: سأبعث إلى السيدة فهيمة في الغد لتأخذ زجاجة ابنها.

-ولكنه كان غاضبًا، لماذا؟ هل أزعجناه؟

-لا يخصنا، لا تسألي أبدًا، لا تجعلي فضولك يوجهك يا ابنتي، افعلي المطلوب فحسب.

-ولكن ياجدتي أنا لديَّ فضول كبير لمعرفة ذلك العالم الذي ذهب إليه أبي، هل يمكنه العودة بسهولة؟ هل يعلم شيئًا عنا؟ هل يشتاق، هل يتألم، هل يحزن وينقبض قلبه مثلنا؟ لم تجبني جدتي ولكن الأسئلة ظلت تتردد داخلي بشكل أوسع، هل يشعر أبي بالحزن لأن أمي نسيته وتركتني؟ أم أنه سامحها لأنني سعيدة مع جدتي؟

هل هو راضٍ عن معيشتي هنا مع جدتي ومقاطعتي لأمي؟ أنا لم أقاطعها، هي من فعلت ذلك وأنا اعتدت الحياة هنا وأحببتها، لا يمكنني إطلاقًا العودة إلى المدينة.

لم أتقن المهنة بعد فأنا لا أستطيع وضع المقادير بدقة كجدتي، لم أتعلم كل الكلمات التي تتلوها فوق الموقد، كتبتها لي في ورقة وحفظت بعضها، ولكنها كلمات صعبة كتعويذة لغة قديمة غير مفهومة.

-من علمك هذه الكلمات وهذه الصنعة يا جدتي؟

-هي منحة من الله، أنعم عليَّ بها بعد وفاة جدك، وقتها كنت أتألم بشدة، بالإضافة إلى شعوري بالضعف والوحدة والانكسار، لا يمكنني إدارة كل هذه الأملاك، والأبناء صغار

والحزن يأكل أرواحهم، لم تطب روحي من الألم المستمر في قلبي إلا عندما أذهب إلى مسجد في المدينة، مسجد كبير تجلس فيه سيدة تعقد حلقات ذكر للسيدات، تعلمت منها الكثير من الأوراد، أظل أرددها في كل وقت وكلما شعرت بالوحشة والافتقاد، ينقلب شعور الانكسار قوة بالتوكل واللجوء إلى الله، ليالٍ طويلة لا أردد سوى هذه الأوراد حتى ينزل الله الصبر في قلبي، ثم أدعو الله أن يمن عليَّ برؤية زوجي وطمأنتي على أحواله، لم أترك وقت إجابة ووسيلة لإجابة الدعوة إلا وفعلتها، فجاءني في ليلة في المنام شيخ يعتمر عمة حمراء وعلمني في منامي شيئًا كالطهو وقال لي هي السلوى..

كان يضع الزهور في إناء نحاسي ويوقد الموقد تحته، فكرت أن أفعل مثله في زهوري فوجدت أنني استخلصت زيتًا عطريًّا جميلاً، علمت أن الشيخ أتى ليعلمني صناعة العطور، ثم في ليلة وأنا أجري التجربة مرة أخرى أتاني خاطر أن أضع بعضًا من بقايا ما أحتفظ به من زوجي، وظللت أقرأ بعض الأوراد التي تعلمتها، فظهر لي، ليشد من أزري، عدت لأسمع صوته ونصائحه ويخبرني بأشياء عن عمله وممتلكاته، وأملأ عيني من وجهه، عدت إلى الحياة وعادت إلي روحي حتى تمكنت من التصرف في كل شيء وتربية الأولاد ليكبروا ويساعدوني.

-إذًا فقد ظهر جدي وتحدث معكِ، لماذا استبعدتِ حدوث هذا مع السيدة فهيمة؟

-لأن هذا لم يتكرر مع كل الأشخاص الذين فعلت معهم ذلك، الآخرون كانوا يظهرون فقط كطيف صامت، وقد رأيتِ بنفسك ظهر ابنها غاضبًا صامتًا واختفى.

-ربما يتحدثون فقط مع المقربين وكذلك عندما تكون هناك رسالة، فبعد أن أتم جدي دوره معك لم يعد يتحدث.

-نعم هذا ما حدث فعلاً.

أخيرًا أتت السيدة فهيمة لزيارتنا، جدتي تنتظرها لتعرف هل استطاعت التحدث مع ابنها؟ دخلت حجرة الجلوس وفي يدها فتاة من سني تقريبًا، سمحت لي جدتي بالجلوس معهم في هذا اليوم على غير العادة، ربما لأعرف نتيجة عملنا معًا على عطر ابن السيدة،

جلست الفتاة بعينين دامعتين حمراوين، تبكي قليلاً وتصمت قليلاً، بدأت السيدة فهيمة الحديث: جئت لأشكرك، تكحلت عيني برؤية ابني وأشبعت أذني وروحي بصوته، رأيت ملامحه وابتسامته الطيبة، أخبرني بعنوان الرجل شريكه واسمه كاملاً، كما عرفني طريق المحامي الذي معه الأوراق والعقود، بعثت أخاه إلى المحامي في القاهرة وبالفعل وجد لديه العقود، لا أعلم كيف ستتم التسوية، فصاحب المشروع مات ولا يمكننا استكماله، ولكنها ستحل بإذن الله، فعلى الأقل عرفنا أين ذهب المال وهذا بفضل..

قاطعتها جدتي: إياكِ أن تنطقيها وإلا تزول النعمة من يدي.

- بعيد الشر.

نظرت جدتي إلى الفتاة الصغيرة بعين حنان وشفقة: من الجميلة؟

-اسمها ثروة.

تابعت السيدة فهيمة وهي تربت على كتف الفتاة: أمها ماتت منذ أسبوع، وهي في هذه الحالة لا تهدأ، تصوري أباها ذهب اليوم ليرى عروسًا.

امتعضت جدتي ومدت يدها إلى الصغيرة: تعالي يا ثروة.

احتضنتها وتمتمت وهي تمرر يدها على رأسها بكلمات لا أفهمها، وعندما سألت جدتي عنها تقول هذا كلام الله.

-ولكنه صعب جدًّا يا جدتي لا يمكنني فهمه، هذا الكلام لا يشبه القرآن الذي نقرؤه.

-هو نفسه ولكنكِ تقرأين سورًا قصيرة بسيطة.

كل مرة عندما أسمع تمتمتها أتساءل هل هذا قرآن حقًّا؟ ولكن لا يمكنني التأكد، فالمصحف كبير جدًّا كيف سأعلم، ولكني أصدق جدتي.

سمعت جدتي تقول: هذه الصغيرة لن تتحمل رؤية طيف أمها.

هتفت السيدة: الفتاة مشتاقة ملتاعة لرؤية أمها، اجبري بخاطرها.

-يا فهيمة عقولنا قد لا تفهم طبيعة الموت ولا تدركه ولكنها أيضًا لا تقبل برؤية شخص ميت.

ولكن الفتاة توسلت إلى جدتي أن تجعلها ترى أمها ولو لمرة واحدة، فهي لا تفهم مطلقًا كيف في لحظة واحدة ينتهي كل شيء ويصبح من المستحيل أن تراها مرة أخرى ولا يمكنها بأي وسيلة أن تصل إليها أو تستمع إلى صوتها، هذا ليس عدلاً أبدًا.

همست جدتي: هذا هو الموت، لا يمكننا سوى الرضا والاستسلام.

إلا أنها بعد لحظات صمت وتفكير أخذت اللفة القماشية الصغيرة من الفتاة وطلبت منها أن تأتي بعد يومين لتستلم العطر، تبدل وجه الفتاة تمامًا من العبوس والحزن إلى الفرح والأمل، ستعود بذلك الأمل الذي بثته بداخلها جدتي أن ترى أمها مرة أخرى، لمسني شعورها، تذكرت أبي عند وفاته وكذلك أمي التي أفتقدها كثيرًا رغم أنها على قيد الحياة: أفتقد أمي يا جدتي، ألن تزورنا قريبًا؟

-سنحدثها ونطلب منها أن تأتي. لا أحب أن أراكِ حزينة مطلقًا.

-تذكرتها وكنت أود أن تعيش معنا.

-هي مرتبطة بعملها وعائلتها في المدينة.

-وأنا ألست من عائلتها؟ أنا أهم فرد في عائلتها.

-أنتِ أهم فرد في حياة جدتك، ألن تحضري معي كيف سنحضر أم ثروة؟

كفكفت دمعي وقمت لأتبع جدتي إلى حجرتها، تكررت تفاصيل المرة السابقة، أحاول أن أنصت لجدتي وهي تتلو تلك الكلمات الصعبة حتى ظهر وجه السيدة بين الدخان ثم تبدد في صمت، تكررت زيارات المعارف والغرباء وجلسات تحضير العطر تلك حتى بدأت أحفظ الخطوات وأفهم المقادير والكلمات الصعبة.

تحدثنا إلى أمي، كانت تتحدث معي بكلمات قصيرة مقتضبة، دائمًا مشغولة أو نائمة، حتى الحديث معك عبر الهاتف يا أمي أمر صعب؟ كنت أنزوي في حجرتي وأبكي، لا أعلم لماذا أبكي هكذا، فالحياة مع جدتي جميلة وأنا أحبها كثيرًا ولكني أشعر بشيء ينقصني، شيء لا وجود له في أي مكان آخر سوى معها، لا يمكن لأي سيدة في العالم تعويضه، أو بثي ذلك الشعور الذي أتوق إليه ولا حتى جدتي.

ظهرت في زيارة خاطفة لنا، كانت جميلة وبدينة وعيناها تلمعان، احتضنتني وقبلتني كثيرًا، بكيت في عناقنا، لم تفهم سبب بكائي ولم أفهمه أيضًا، قلت: أفتقدك.

-هل تريدين أن تأتي معي؟

صمت.. ظلت تكرر سؤالها وتضيف: يمكنك أن تخبري جدتك بأنكِ تريدين الذهاب معي، ستوافق فورًا لأنها تحبك ولا تريد سوى راحتك.

-ولكني لا أحب أن أترك جدتي.

-أنا أم جدتك؟

-أنتِ وهي.

-مستحيل، لا تطلبي المستحيل.

لم تمكث أمي معنا سوى ليلة واحدة ثم غادرتنا في ظهر اليوم الثاني، كانت في عجلة غريبة لم أعهدها، قبلتها كثيرًا واحتضنتها، على الباب وقفت لتمسح على شعري وتقول: شذا.. هل أنتِ زعلانة مني؟

-أنتِ أمي وأنا أحبك ولا يمكنني أبدًا أن أزعل منكِ.

*****

عالم العطور عالم ساحر، رائحة من تحب ليست فقط هي نوع العطر الذي يستخدمه وإنما مخلوطة بروحه ورائحة جسده وشخصيته، بعد كل صدمات الفقد تلك، أبي، ثم أمي، ثم جدتي، التأمت كل تلك الجروح بشيء واحد، صناعة العطور، آمنت بأنها حلقة الوصل بين عالمين، الشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر بعودة الغائبين.

على عكس ظنونهم بنيت عالمي هنا في المصحة التي عزلوني فيها ليتخلصوا مني، توسعت في صناعة العطور، أصبح لديَّ الكثير من الزجاجات الصغيرة لعطر جدتي أنثر بعض القطرات في الصباح على المقعد أمامي، تنتشر الرائحة، أشعر بها تدخل غرفتي بردائها الفضفاض بعد صلاة الفجر، تعقد رأسها بمنديلها الأبيض،

ما هذه الرائحة الدافئة يا جدتي، قهوة وقرنفل وينسون، وفانيليا، رائحة الحلوى، والخبز، حظيرة الطيور والأغنام، والقش واللبن، تحولت من مجرد شمها إلى رؤيتها وسماعها بل والعيش فيها، كل عنصر من تلك العناصر يمنحني تمييزه في خليط عطرك شعورًا مختلفًا، سأخبرك يا جدتي الكثير من الحكايات هذه الليلة، ردًّا لجميلك معي في سرد الحكايات طيلة العشر سنين الماضية، كل يوم دون كلل حتى يخطفني النوم، هناك ممرضة لطيفة ترافقني في الصباح، جسدها نحيل، شعرها ذهبي، تجدله بجديلة واحدة تصل إلى نصف ظهرها، بيضاء جدًّا، تمسك يدي بيدها شديدة البياض كأنني أعجز عن السير، في البداية ظللت صامتة مع الجميع حتى أمسكت هذه الممرضة التي تدعى مارتا بإحدى زجاجاتي وقالت: هذه الرائحة تذكرني بأمي.

اسمها جذاب ومظهرها ساحر، تدخل القلب فورًا لذا فقد ائتمنتها على سري، فسألتني إن كان يمكنني صنع عطر خاص بأمها الراحلة، طلبت منها بعض الأشياء، وصنعته لها بالفعل، لم يكن بالدقة المطلوبة كعطر جدتي وأبي، إلا أن النتيجة أدهشتها، رقصت من السعادة، ولكن ما لم أحسب له حساب هو انتشار الفكرة كأنني صانعة عطور الموتى، أمر خيالي ولكن عندما ينتشر في مصحة للأمراض النفسية فلن يخرج هذا الأمر عن جنون العالم الذي يجمعنا، لا أحد يمكنه تصديق الفكرة سوى هؤلاء المجانين كما يطلق عليهم العالم الخارجي، الجميع هنا يمكنهم سماع أصوات ورؤية أشخاص من عالم آخر غير ملموس، ولكن جميعًا يصدق بعضنا بعضًا، حتى الممرضات هنا جزء غير منفصل عن هذا العالم، كأنهن منه، ولا أدري إن كان هذا ضمن خطة العلاج، إلا أنه أشعرني بالراحة والقبول، هناك فارق كبير بين أن تعيش في عالم يتهمك بالجنون ولا يصدق تجربتك المريرة وحزنك الدامي، وكل محاولاتك للتعايش مع ألمك، وعالم يقبل منك كل جنون، لو أن شخصًا واحدًا في هذا العالم الخارجي تعلم كيف يقبل أحزانك وهواجسك وأفكارك المجنونة لتعافيت أسرع وتعايشت بشكل أفضل مع كل هذا الحمل الذي كاد يكسرك.

لذا فقد أحببت هذا العالم، فلا أحد يمكنه تقبل فكرة أن يرى شخص حي الأموات ويشم رائحتهم ويعيش ويتخاطر معهم، يقص عليهم وهو مؤمن تمامًا بسماعهم ويشعر بطمأنتهم.

تغفو جدتي إلى جواري كل ليلة. سألتها عن رأيها في أمي كيف فعلت هذا مرة أخرى وأبعدتني عنها؟

-أمك مريضة، ولكنها تحبك.

-ولكني لم أشعر قط بهذا الحب، حتى عند عودتنا للعيش معًا تركتني في غرفة بعيدة منبوذة، كل اهتمامها بابنها وزوجها. أرأيتِ يا جدتي في النهاية قذفت بي إلى هذه المصحة، صحيح أنني أحببت وجودي هنا، ولكن لا يمكنني أبدًا أن أغفر لها تخليها عني.

-لا يهم يا ابنتي، الآن نحن معًا.

-ومعنا أبي وهذا يكفي.

على طرف الفراش يجلس أبي ويبتسم لي. فأسأله: كيف يمكنك المرور عبر الجدار؟

-لأنني هواء.

-هل يمكننا أن نسير معًا خارج هذا العالم؟

-ولكنك مسجونة بجسدك، لا يمكنك الذهاب معي.

-كيف يمكنني التحرر؟

-عند الموت.

-ألا يكفي النوم؟

-بلى، هيا اغفي، وستجدينني هنا لأصحبك في رحلة بعيدة.

-إلى أين؟

-هل تحبين البحر أم الأرض الخضراء؟

-الاثنين.

أمسك أبي بيدي وشعرت بجسدي يرتفع، سبحنا في الهواء حتى وصلنا إلى جزيرة خضراء، هبطنا داخل منزل خشبي، كل صنوف الطعام الطيبة التي تشتهيها أو لا تعلمها النفس من قبل كانت أمامي على طاولة مستطيلة، تعلقت بذراع أبي، وهبطنا إلى الماء، صوت أشياء ترتطم بالأرض تفزعني: ما هذا الصوت يا أبي؟

نظر لي بأسى: إنهم آتون لأخذك.

استيقظت على صوت قوي، فتحت عيني، امتدت لي يدان غليظتان، أخذوني بمفردي لغرفة بلا فراش ولا عطور، حتى رفاق خيالي اختفوا، تمددت فوق مقعد طويل، وقفت مارتا إلى جواري تمسك بيدي ليغرسوا إبرة في ذراعي، يسري المخدر في جسدي، لم أعد أشعر بشيء، وقفوا يتابعونني من بعيد وأنا أتابعهم بروح معلقة، بكيت كثيرًا اختفاء جدتي في هذه الليلة التي حاولت فيها أن استدعيها ولم تأتِ قط، أتت مارتا ثانيةً وحملوني معها إلى غرفة بفراش وأجهزة، تكرر مشهد غرس الإبرة في ذراعي وذلك الخدر الذي يسري في جسدي مع برودة أطرافي، ظهر أخيرًا والدي فسألته: هل يمكننا الذهاب معًا الآن؟

هز رأسه نافيًا ثم همس: بل قد تتوقف لقاءاتنا.

هل يعالجونني حتى أتوقف عن رؤيتك؟ أي جنون هذا؟ ما الصواب وما الراحة أن أكون مريضة أم أن أشفى؟ إن كان المرض في لقائك فلا أريد أن أشفى.

كل يوم جلسة من تلك الجلسات العلاجية تبدأ بوخز الإبر وبكرة من القماش في فمي، وتنتهي بثقل في جسدي، بعد فترة لم أعد أشعر حتى بوخز الإبر ولا أي شيء فقد شعرت أن روحي بعيدة تمامًا عن جسدي، أنظر إليه عن بعد وأراه يتعذب ولا أشعر بألم.

أعود إلى حجرتي الرمادية، لماذا هي نظيفة هكذا؟ نظيفة أكثر من اللازم، أين زهوري يا مارتا؟ وزجاجات العطر؟

تجيب مارتا على استحياء: لقد تخلص دكتور شاهر منها.

انتهت صناعة العطور، انتهى كل شيء، لقد سلبوني الأشياء التي كانت تحمل عالمي، بل سلبوني عالمي نفسه، أهلي، الأشخاص الذين أحبهم، مات أبي وماتت جدتي مرة أخرى، هذا العالم لا يحتمل، أود أن أذهب إليهم، كيف أفعلها، الغرفة خالية تمامًا، نظيفة أكثر من اللازم.. كيف أعود إلى عالمك يا جدتي كيف أعود إلى الحياة معك في حجرتك ذات الباب القديم ومعملك الصغير، نخيط المفارش للفتيات.

لا حبوب لا سكين، لماذا لا توجد أي وسيلة أقتل بها نفسي، لا شيء هنا يمكن الهروب به سوى النوم، أشتم بقايا رائحة جدتي على الوسادة وأغفو.

*****

بعد والدة ثروة والسعادة التي رأتها جدتي في عينيها عندما عادت لتخبرها أنها رأت أمها وتحدثت معها واستأنست بوجودها، تخلت جدتي عن تحفظها وفتحت بابها للمكلومين تساعد كل من له طلب، وفي كل مرة كانت تعلمني شيئًا جديدًا، لم نكن نستقبل سوى النساء الحزانى ومن لديهن أمر معلق مع الأموات، لم تكن جدتي تعلم أن هناك من يتخذ هذا الأمر مهنة بالغبن يحتال على الناس مقابل المال أما جدتي فكانت تفعل هذا بلا مقابل، وفي ليلة بعد أن غفت جدتي -فهي تنام بعد العشاء لتصحو قبل الفجر تصلي وتسبح ثم تبدأ العمل- قطعت حليمة غفوتها لتخبرها أن هناك ضيفة أتت من سفر بعيد، نهضت جدتي واستمعت إلى حكايتها التي سمعتها أنا كالعادة من خلف الباب، سيدة جميلة بشوشة تظهر ملامح الثراء على ثيابها وحليها، إلا أني شعرت أن دموعها مسرحية غير صادقة، اعتبرت جدتي ذلك مبالغة مقبولة منها لإقناعها، حكت لها السيدة عن زوجها الذي مات.

قالت: لقد عاد لي فجرًا مترنحًا ثم سقط وقد توقف قلبه.

-هل كان مريضًا؟

-لا، لقد قُتل، علم الأطباء أن سمًّا سرى في جسده احتساه في قهوة شربها قبل عودته إلى المنزل..لم يكن موته فقط هو المصيبة.

-وجهوا إليكِ اتهامًا بقتله؟

-بالضبط، ولولا الشهود الذين أثبتوا وجودي في المنزل وعودته فجرًا لتعرضت لحكم الإعدام.

-حمدًا لله. ولكن لم أفهم كيف يمكنني مساعدتك؟

-سأخبرك.. دعيني أكمل الحكاية.

أومأت بالإيجاب جدتي منتبهة.

-قبل هذا اليوم بأسبوع أخبرني أنه يريد أن يتزوج أو أنه تزوج بالفعل والآن تجرأ على مصارحتي، لقد عشت معه أكثر من عشرين سنة ولم ننجب، علمت أنه يذهب إلى سيدة أخبروني بعنوانها وأنها حامل، فتأكدت أنها زوجته، ولكن بعد وفاته عندما بحثت عنها وجدتها اختفت، أنا متأكدة أنها هي من قتلته وأريد الوصول إليها.

-ولكن ما مصلحتها في قتله، بالعكس هي مضرورة بموته، أكثر منكِ.

-ماذا تقصدين سيدة غالية، أنني أنا من قتلت زوجي؟

-لم أقل هذا العلم عند الله، لا يمكنني مساعدتك.

-أنا فقط أريد الحقيقة، أريد أن أعلم أين هي.

-كل ما يمكنني أن أفعله لكِ هو تحضير زجاجة عطر لزوجك لتسأليه بنفسك، فهو لن يتحدث إليَّ.

الآن مطلوب منا إحضار روح شخص مقتول، مجرد طرح الفكرة أصابني بالهلع ولا أعلم لماذا، فالجو كله كان مرعبًا، همسها وأداؤها والقصة التي ترويها ووصولها إلينا في هذا الوقت أمر مخيف، ناهيك بجريمة قتل تريد منا أن نفسرها ونرشد العدالة عن القاتلة الخائنة. أيدت رأي جدتي، أليس من المنطقي أكثر أن تكون الزوجة الأولى هي القاتلة؟ هي بالتأكيد تفعل هذا لتبعد عنها التهمة تمامًا،

رأيتها تضع بين قدمي جدتي لفة من القماش، أمسكتها جدتي ووعدتها أن تخبرها فورًا بمجرد أن تنتهي من عملها لتحضر لها زجاجة العطر، ولكن السيدة أجابت: لا يا سيدة غالية أنا لا أريد أن أرى زوجي ولا أتحدث معه.

تلح السيدة على جدتي: تحدثي أنتِ معه.

-لن يحدث، لم يسبق لي أن تحدثت روح غريبة معي، الروح تتحدث مع ذويها.

-لا يمكنني أن أفعل ذلك، سأموت من الرعب بمجرد رؤيته.

لم تتعاطف جدتي مع الأمر كله، رجل قُتل وسنرشد العدالة للقاتلة، بالأحرى لم تصدق السيدة.

ولكن يا جدتي لماذا تبحث عن القاتل بهذه الطريقة؟ هل تعترف الشرطة والنيابة والمباحث الجنائية بكلام روح المقتول؟

-لا بالتأكيد، هي لا تبحث من أجل إعلام النيابة بالقاتل، يكفي أنها نجت بنفسها، لن تفعل هذا من أجل زوج أراد أن يتزوج غيرها بعد عشرة عمر، هناك سبب آخر لذلك سأجري تجربة.

-أنا خائفة.

-لا تحضري هذه الجلسة.

-لا.. سأخاف عليك.

احتضنتها واحتميت بذراعيها من خوفي حتى غفونا معًا.

جدتي في الحجرة ترفض دخولي، أشتم رائحة العطر، أنظر من شق صغير، يظهر رجل غاضب وجهه مخيف، يظهر جسده كاملاً بعد لحظات مجروحًا في صدره، وجرحه ينزف، حدثته جدتي كثيرًا لكنه لا يتحدث أبدًا، أكثر من مرة تكرر تجربتها بلا جدوى حتى اشتعلت النيران في المكان الذي يقف فيه، صرخت جدتي فركضت إليها أمسكت بدلو الماء وصببته فوق موضع النار فازدادت توهجًا، صرخت جدتي: ابتعدي يا ابنتي هذه نيران شيطانية. قرأت جدتي آيات قرآنية فانطفأت،

التقطت أنفاسها المتسارعة ثم همست لي: انتهى الأمر، لا تخافي، هذه سيدة ملعونة، قاتلة وكاذبة.

-كيف عرفتِ؟

-من الروح التي حضرت، رجل قُتل منذ عشر سنوات ولم يعلم أحد بقاتله، هذه السيدة هي من قتلته، كان زوجها، لم تفصح لي عن الحقيقة كاملة، أعتقد أن زيارتها وراءها شيء آخر، وراءها شياطين يريدون أن يعلموا إلى أي مدى تصل قدرتي على استدعاء الأرواح، الذي حضر لم يكن روحًا كان قرينه.

-وهل أنتِ متأكدة من أن كل من يظهرون لنا هم أرواحهم فعلاً وليسوا القرناء؟

-لا أعلم يا ابنتي، هم لم يفعلوا شيئًا مؤذيًا قط، لو أنني كل هذا العمر كنت أستدعي القرناء فقد ضاع عمري هدرًا.

-ليس هدرًا، لقد أسعدتِ الكثيرين.

-أتمنى.

*****

نامت جدتي متعبة تحلم بكوابيس طوال الليل، وتنهض لتذكر الله ثم تنام.

في الصباح أتت حليمة تهمس في أذنها: سيدة غالية هناك شاب قريب لي أريدك أن تجلسي معه.

تقلبت جدتي في الفراش لترى وجهها: لا أقابل الرجال يا حليمة، ولا أعمل من أجل طلباتهم.

-يا سيدتي هذا شاب يدرس في الجامعة لم يتجاوز العشرين، رسب هذا العام بعد وفاة أمه وأبيه في حادث، لقد حاول الانتحار وأنقذناه، فزوجي خاله.

-يا للمسكين، هذا يحتاج إلى جلسة إيمان وليس تحضير عطور وأرواح.

-ليتكِ تجلسين معه، فلم يبق له في عائلته سوى زوجي.

قامت جدتي تستند إلى ذراع حليمة وتترنح فهتفت: يا جدتي أنتِ متعبة استريحي اليوم، لا داعي لهذا اللقاء فليأتِ في وقت آخر.

لكنها تجاهلت كلماتي واتجهت نحو الباب مع حليمة، كعادتي تسللت أتبعها لأقف خلف باب حجرة الاستقبال المحرمة، ظهر شاب نحيل أقصر من جدتي، وضع في يد جدتي لفافة ثم غادر سريعًا.

خرجت جدتي فرمقتني بنظرة غاضبة: تقفين خلف الأبواب. ألم أنهَكِ من قبل عن هذه التصرفات؟

-آسفة يا جدتي ولكني خفت عليكِ.

-لا تخافي.. تعالي نحضر لجلسة الليل.

قلت بفرحة: سأحضرها معك؟

-بالطبع.

كانت جدتي تحضر الحجرة لتكون خالية من المفارش وشغل الخياطة، وتضع الموقد في مكانه وتجهز الفحم على الاشتعال وتحرق البخور، وتذكر الله في أثناء ذلك. بعد الغداء كنا نسير حول المنزل، نمر بالأراضي والمزارعين، تطمئن جدتي على المواشي، وبرج الحمام، تجلس بين الحمامات قليلاً تتحدث معها ثم نعود قرب المغرب، كل النساء في الطريق يقبِّلن يد جدتي وهن يلقين عليها التحية. قابلنا تلك السيدة التي جاءت إلى جدتي من أجل زوجها القتيل، كانت تقود السيارة بنفسها وعندما لمحت جدتي أسرعت حركة العجلات ومرت بجوارنا كحصان جامح: جدتي إنها السيدة التي أتت إليكِ قبل يومين.

-نعم لاحظتها.

-لماذا جرت هكذا؟ هل خافت منا؟

-إنها خائفة بالفعل، ما فعلته أكد ظنوني، هي كانت تريد أن تعلم إلى ماذا سأصل وعلمت لذلك خافت لأنني الآن معي سرها.

-أنها قاتلة؟

-اصمتي، نتحدث في هذا في المنزل.

للمرة الأولى لطمتني جدتي عند وصولنا إلى المنزل: هذه الأحاديث لا ننشرها على الطرقات، كنت مخطئة عندما ائتمنتك على هذا السر، لستِ سوى طفلة حمقاء.

بكيت ومن بين دموعي التي لا أعلم بأي ذنب أذرفها ولا لماذا أهان وأضرب على وجهي قلت لها: آسفة يا جدتي، لم أقصد، أعدك ألا أفعل هذا.

لكنها تركتني أنام في غرفتي، وطردتني من غرفتها ومعملها ومملكتها التي أحب، بل وصل بها الأمر أن حددت إقامتي في غرفتي، لم يعد يمكنني التنصت على جلساتها مع ضيوفها في غرفة الجلوس، أحاول من حجرتي تقصي الأمر، كنت أتعرف على ضيوفها من صوت نعالهم، سمعت صوت نعل ذلك الشاب، عرفت رد فعله المسرور من صوت خطواته أيضًا، ولكن كيف تبدلت جدتي هكذا، كيف هنت عليها؟ لقد أصبحت بروح أخرى قاسية، أشعر بالقهر لتعلقي بها ولأنه ليس لدي مكان آخر يمكنني أن ألجأ إليه، عشت أيامًا حزينة لم أستطِع حتى اللجوء إلى أمي ومهاتفتها، هي لم تعد تجري أي اتصال منذ شهر، جدتي أخبرتني أن أمي تزوجت ولن تتصل بي مثل الماضي، أسألها كيف عرفت؟ فتخبرني أن لها طريقتها، الأخبار تصل إليها عبر الهواء. عادت جدتي أخيرًا لتفتح بابها لي، كنت راغبة في اعتذارها لي، على الأقل أن تطيب خاطري، ولكنها لم تفعل، شعرت أنها كانت تتمنى فعل ذلك وأنها شعرت بخطأ تصرفها ولكن لكبر بداخلها لا تعترف بذلك أبدًا، أسامحها لأني أحبها، تجنبت السؤال عن أي شيء يخص جلساتها تلك، حتى علمنا خبر انتحار الشاب قريب حليمة، انزوت جدتي في غرفتها، أغلقت الباب وبكت كثيرًا لأجل هذا الشاب. سمعتها أغلقت باب الحجرة الداخلي الذي نمر من خلاله إلى معملها، قالت: لن أفتح هذا الباب ثانيةً، يكفيني الشر الذي أتى منه.

-ولكن حليمة قالت إن الولد حاول الانتحار من قبل،

لماذا تحملين نفسكِ أمر انتحاره؟
-لأني علمت أنهم شياطين.

*****

لماذا لم تعد جدتي تظهر؟ ولم يعد يمكنني الانتقال لمنزلها أيضًا، لا شيء سوى هذه الغرفة الرمادية الرتيبة، ووقت لا يمر مطلقًا، اختفى وجه أبي، ووجه جدتي وعالمها الرحب، جلست صامتة لا أفعل شيئًا سوى الجلوس، لساعات طويلة أجلس في شرفة الغرفة أتأمل الطيور تنتقل بين الأشجار وأفكر في التحليق معها بلا أجنحة، أخبروني أنني سأذهب إلى منزل أمي مرة أخرى في زيارة قصيرة لمدة يومين فقط لا غير.

أتى الموعد المتفق عليه للعودة إلى المنزل لمدة ليلتين، جاء المدعو نادر ليصحبني معه، كنت حانقة عليه، هو من أتى بي إلى هنا، ظلوا يحقنون وريدي بالعقاقير ويعرضوني للجلسات المؤلمة تلك، كل ذلك أضاع عالمي، بدد شبح جدتي وأبي، لقد سلبوني عطوري، الزجاجات والبخور والموقد الصغير، وأشياء جدتي، كل شيء أحضرته معي، حتى عطر أم مارتا لم يسلم منهم، ليلتها جميعهم ماتوا بالنسبة إليَّ ميتتهم الحقيقية، لن أغفر لنادر فعلته هذه أبدًا.

عندما وصلنا إلى المنزل، لم تكن أمي في استقبالي، هي تعجز حتى عن فعل أصغر الأشياء وأبسطها رغم أن مثل تلك الأشياء البسيطة ستخفف عني، كرهي لها يزداد يومًا بعد يوم.

هي الآن منشغلة بابنها والسيدة العجوز التي هبطت على المنزل، هذه السيدة لا تشبه جدتي أبدًا، جدتي ريفية تتحدث بلهجة خاصة، تظل تعمل طوال اليوم بين الزرع والحيوانات والطيور، إنها تعلم لغة الطيور تتحدث معها عصر كل يوم وتحبها وتنتظر بلهفة وقت زيارتها اليومية.

دخلت غرفتي لا أفعل شيئًا سوى التفكير في شيء واحد، الانتقام منهما،

فقد عذباني كثيرًا والآن يعيشان سعيدين، عائلة سعيدة دافئة، أما أنا فمنبوذة من هذه العائلة ومحرومة من هذا الدفء.

على طاولة الغداء جلسنا جميعًا، قالت أمي بحماس: لقد صرتِ أفضل وأكثر جمالاً.

الملعونة الكاذبة، لقد خسرت الكثير من الوزن، أجبتها: جلسات الكهرباء تجعلنا أكثر جمالاً وجاذبية.

امتعض نادر لردي، وتوقفت أمي عن غرف الطعام في الأطباق شاردة، ثم تداركت الأمر، استكملت الغرف، ونهضت فورًا، شعرت وقتها بالانتصار لأنني جعلتها تبكي وتترك الطعام. نهض نادر خلفها، الآن سيضمها ويقبلها، أكره حبه لها، أكره علاقتهما البغيضة.

بقيت على الطاولة هذه السيدة المسنة، تلمست منها بعض الحنان وهي تربت على كتفي وتطلب مني أن أستأنف غدائي، شكوت لها ما فعلته أمي، لقد تركتني وحيدة في بيت جدتي، تعلمين يا جدة البنت تحتاج إلى أمها حتى إن كانت لديها أحن جدة في العالم.

صمتت الجدة، نظراتها إليَّ ممتلئة بالدهشة والخوف، لم أفهم لمَ الخوف؟ هل أملك عينَي شيطان؟

-هل جربتِ شعور الكهرباء وهي تسري في جسدك؟

تنظر بخوف ولا تجيب، فأخبرتها أن جلسات الكهرباء تقدمت كثيرًا، ليست كما تشاهدينها في الأفلام، إنهم يخدروننا قبلها وتستمر لدقائق فلا نشعر بألم، المشكلة أنهم حطموا كل الزجاجات وهذا ما يؤلمني.

عاد نادر إلى الطاولة فنهضت لأغتسل، دخلت غرفتي وأغلقتها خلفي، الملل سيقتلني والأفكار تأكل رأسي، نامت أمي في غرفة المكتب محتضنة صغيرها وبقي نادر يعمل في غرفة الجلوس حتى ساعة متأخرة من الليل، اكتملت الخطة في رأسي، قطعت الكهرباء من خارج المنزل بينما يعمل، بدا عليه التوتر والغضب،

تفوه ببعض الكلمات عن أهمية الانتهاء من عمله الليلة، اتجه إلى النافذة ليلقي نظرة على المنازل المجاورة والشقق في العمارة ذاتها فوجدها جميعًا مضيئة، علم أن العطل من الداخل، مت رعبًا، شعرت للحظات بأنه بالتأكيد سيشك فيَّ، ولكنه أبدًا لم يفكر أن يقترب من حجرتي ولا حتى لينظر إلى كابل الكهرباء الموصل إلى المنزل.

همس: أين المشكلة إذًا؟

فتح لوحة المفاتيح وجدها سليمة، فتحها وأغلقها أكثر من مرة ثم همس: أين المشكلة إذًا؟

سلط ضوء هاتفه لأعلى وظل يتفحص بعينيه حتى لاحظ أن أحد طرفي السلك الموصل للدواة مقطوع، وهذا ما فعلته أنا في أثناء تفحصه للوحة المفاتيح، أغلق المفتاح الخاص بالمكان من لوحة المفاتيح تأمينًا لحين الانتهاء من إصلاح السلك،

ولكن بمجرد أن وقف على الكرسي وأمسك بطرف السلك لتوصيل الطرفين وربط الأطراف العارية على بعضها بيديه العاريتين،رفعت المفتاح وأسرعت إلى الحجرة لأصل طرفي سلك الكابل الخارجي الموصل إلى المنزل، وبمجرد أن قربت الطرفين لبعضهما بأداة عازلة سمعت صراخه، كان أمتع شيء، ظل يصرخ بصوت عالٍ ثم خفت وتوقف تمامًا، فأبعدت الطرفين مرة أخرى، يكفي أن يموت، لا أريده أن يحترق، نهضت أمي من نومها فزعة، تعثرت في جسده الساقط في وسط الغرفة، بكت وهي تهزه، سمعت صوت نحيبها ولم أفهم لماذا بكت بهذه الحرارة.

ركضت نحوها واحتضنتها، الآن أمي صارت لي وصرت أحبها تمامًا مثلما كنت طفلة، عندما تداركت أمي الموقف علمت أنني قصصت السلك الخارجي، ولكنها ظنت أنني كنت أحاول إنقاذ نادر عندما أمسكت به الكهرباء، بالتأكيد أنا غريبة عن المنزل ولن أعلم بمكان لوحة المفاتيح المهم أنني حاولت.

ولكن أمي شحبت وصمتت كأنها ماتت وغابت عن عالمنا، كل هذا من أجل نادر، ولماذا لم تفعل مثل هذا عند وفاة أبي، أمه في حجرتها تبكي تكاد تموت كمدًا،

آسفة يا جدة كان لا بد أن تمري بالألم نفسه الذي مرت به جدتي، لقد فقدت ابنها وهي تظن أنها على بعد خطوة من الموت وعاشت بعده عشر سنين.

في ليلة كانت أمي تحمل شادي وتجلس على الأريكة في غرفة الجلوس، تبكي بهدوء، سألتها: ما رأيك أن أصنع لكِ عطره؟ سيعود بروحه ويعيش بيننا مرة أخرى.

ربتت على كتفي بيمينها وضمتني إليها، همست: نادر مات ولا يمكن أن يعود، وأنتِ يجب أن تنسي كل ذلك، ستذهبين إلى المدرسة هذا العام.

ما كان ينقصنى أن يذهب بي موت نادر إلى المدرسة، ولكني لم أذهب بل هاتف طبيب المصحة أمي بإلحاح منه أن أعود لأني لم أستكمل العلاج وهو غير مطمئن لوجودي في المنزل مع كل ما يحدث، عدت إلى المصحة مستاءة أشعر بالغضب، ولكن ما خفف عني هو وجه مارتا، أتتني تضع يدها في جيبها وتسألني: توقعي ماذا معي؟

نظرت إليها بدهشة مستفسرة فأخرجت من جيبها زجاجة صغيرة من زجاجاتي، احتفظت بها لأجلي عندما دمروا زجاجات العطر جميعًا، أبقت زجاجة بعطر جدتي، نثرت بعض القطرات على الوسادة، شممت رائحة القرنفل وكيكة الفانيليا والبرتقال، والخبز الطازج برائحة الموقد وسط الأرض الخضراء والحمام يأكل من يدها: يا الله يا جدتي أخيرًا أنا هنا مرة أخرى، معكِ في أرضنا الجميلة، نسير معًا في نزهتنا اليومية المعتادة بعد الغداء.

هتفت: يا جدتي هذه السيدة عادت وتحوم حول منزلنا.

عندما ركضنا نحوها كانت اختفت بسيارتها، أشعر بخوف شديد من هذه السيدة، أطلب من جدتي أن تفتح الحجرة، فترفض تمامًا، تقول: لن أفعل هذا ثانيةً.

-لماذا؟ أريد أن أفهم.

-عندما كنتِ في غرفتك جاءني رجل قال إنه يريدني أعمل معه في أعمال السحر، أخبرني أن كل ما أفعله يمكنه التحكم فيه فيبعث لي من عنده من يفسدون عملي، وأنه بالفعل أفسد عملي عندما صنعت العطر لذلك الشاب الصغير،

أنا من قتلت هذا الشاب، لقد بعث له ذلك الساحر قرينا أمه وأبيه يقنعانه بالانتحار للذهاب إليهم، أفسد عليَّ كل شيء، لقد فقدت ثقتي حتى بما فعلته سابقًا، أنا أحاول الآن التكفير عن ذنبي بتكريس وقتي للعبادة.

–ولكن يا جدتي ألم يعد يمكننا حتى رؤية أبي ثانيةً؟

–لا يا ابنتي يمكننا رؤيتهم فقط في الأحلام، عندما ندعو لهم، لكن كل هذا كان خطأ، ربما لم يكن ما رأيته زوجي ولا هذا كان ابني، كان مجرد شيطان.

–لا يا جدتي، أبي كان جميلاً مبتسمًا يشير لي بيده ويداعب شعري وأحيانًا يعزف على الكلارينيت.

–يمكن لشيطانه أن يفعل كل ذلك.

–الشيطان ليس طيبًا هكذا، كان سيؤذينا.

–هذا ما يحدث الآن، مهددين بالأذى.

–هل هددك هذا الرجل؟

–نعم.. يهددني بكِ، سأرسلكِ إلى أمك.

قلت بسعادة: حقًّا؟

–ألهذه الدرجة؟

شعرت بالخجل لأني أظهرت فرحتي فطأطأت رأسي بينما تابعت جدتي: هذا ذنب آخر، لقد حرمتك من أمك بأنانيتي، لم أرزق ببنات أنجبت أربعة رجال، كان أصغرهم وأحبهم إلى قلبي عبد الحميد، كيف أفرط في ابنته؟ ضغطت على أمك لتتركك معي، ضيقت عليها الخناق، وكلما وجدت حلاً لتأخذك معها ضيقته أكثر لتبقي معي، سامحيني يا شذا وسامحي أمك.

–أنا أحبك يا جدتي وأحب أمي رغم كل شيء، ولكنكِ قلتِ إني سأذهب للعيش معها.

–أمك تزوجت هل سترضين بالعيش مع رجل غريب؟

صمتُ، لم أفهم بشكل كامل كيف ستكون حياتي مع أمي وزوجها، هل سأكون سعيدة معها؟ ألن أشتاق إلى جدتي؟ فاحتضنت جدتي وقلت لها: فلننم الآن.

كعادتنا نهضنا لصلاة الفجر، وبعد الصلاة سمعت جدتي صوتًا في معملها فخشيت أن يكون هناك شخص تسلل إلى الداخل، فتحت الباب فهاجمنا دخان كثيف، صرخت جدتي ممسكة بسجادة الصلاة تحاول إبعاد الدخان، تسعل بشدة ولا ترى شيئًا، كنت قد عدت إلى الفراش لأستكمل نومي ولكن الدخان استفز صدري لأسعل بلا انقطاع، ركضت نحو باب الغرفة، الباب القديم الثقيل الذي جلبته جدتي لتحفظ خصوصيتها، عجزنا اثنتانا عن فتحه وخارت قوانا ونحن نصرخ خلف الباب لينجدنا أحدهم، خلف النافذة كانت كل الوجوه تتابعنا وتضحك، صرخت جدتي وهي لا تزال تمسك بسجادة الصلاة وتطيح الدخان بها: شياطين.

أيأس من فتح الباب فأتجه إلى النافذة أحاول فتحها ولا تفتح، كل الوجوه التي أحضرتها جدتي بصناعة العطور دخلت الحجرة وحاصرتنا وسط الدخان، أركض إلى معملها فأجد النيران تأكل كل شيء فيه، أغلق الباب الذي بيننا، لا بأس من الاختناق ولكني لا أريد أن أحترق.

هادية

يمكن لفكرة واحدة أن تنمو داخل رأسك وتترعرع حتى تفسد حياتك بالكامل، فكرة واحدة تجذبك وتسجنك داخلها لعمر طويل، تجعلك تشعر بالذنب وتجلدك كل ليلة، وأنت عاجز عن التحرر، أو رؤية الحقيقة كما هي كاملة، وكيف ستعلم من الأساس أن هذه هي الحقيقة. ما الإثبات على ذلك؟

للحقيقة أوجه كثيرة، ما الحقيقة إلا وجهات نظر، كل منا يظن أن ما يراه من زاويته هو الحقيقة، ماذا لو أننا بدلنا الأماكن، هل يمكننا رؤية الحقيقة كاملة؟

مرة أخرى أجد نفسي في منزلي القديم أقف أمام المرآة أصفف شعري الطويل، كنت أحبه طويلاً وكذلك عبد الحميد كان يعشق شعري الطويل، كنت أستمتع باهتمامي به، قبل أن أشعر أنه هم ثقيل كهم العمل وتوفير الإيجار والطعام والمصاريف الشهرية، أشعر بثقله فوق كتفي يُحدث لي انحناءة في ظهري فلا يستقيم جسدي إلا بقصه، من جديد تعود موسيقى الكلارينيت، يعزف أغنية معروفة لفيروز، أدندن نغماتها لأتذكر الكلمات،

"طفي قناديلي وانطر اصحابي مرقوا وفلوا بقيت لحالي ع بابي"

وحدن بيبقوا أغنية حزينة لفيروز يزيدها الكلارينيت حزنًا، ابنتي شذا تتدلل عليه، تقبِّله وهو يعزف، كبرت شذا صار عمرها أكثر من أربع سنوات، ليس لديَّ وقت عليَّ أن أدخر مبلغًا، أخفي الذهب الذي بعته في حياتي الأولى معه من أجل مرضه، هذا ما تبقى لي لأعيش حياة كريمة مع ابنتي، سأبيعه وأضع المال في البنك وبعملي الصغير نعيش وبالفوائد تدخل شذا المدرسة، يحدثني عبد الحميد عن حفلة قريبة أتذكر أنها الحفلة الأخيرة قبل أن يهدمه المرض، سيهدم روحه قبل جسده، قلت: يجب أن نحافظ على أجر هذا الحفل.

يقول ببساطة: ألن نسافر كما اتفقنا لنزور الأقصر وأسوان معًا ورحلة نايل كروز التي تحلمين بها؟

أجيبه بحزم: لا لن أذهب، لا يهم.

يبدي اهتمامًا وتعجبًا من ردي: ماذا بكِ؟ لم تبدلتِ هكذا؟ كنتِ متعلقة بهذه الرحلة.

أهتف به: نحن بحاجة إلى المال.

وبلا مبالاته المعتادة يقول: الحفلات ستأتي كثيرة لا تقلقي.

لا أدري كيف أخبره أنني أعلم ما سيحدث، فأهتف به: أرجوك وافقني وحسب.

يستسلم أخيرًا: كما تشائين.

لم يكن يعلم أنها ستكون حفلته الأخيرة ،كان يظن أن العمر سيمتد لحفلات أخرى كثيرة، استقبلته بعد الحفل كان مرهقًا جدًّا، وفي اليوم التالي ظل نائمًا مجهدًا، ظن أنه مجرد إرهاق من السهر أمس، ولكنه ظل متعبًا فذهبنا إلى الطبيب، ليخبرنا بالمرض القاتل الذي أصابه على غفلة.

قال: وفرنا ثمن الرحلة للمرض، كأنك قرأتِ الغيب.

-ستعالج وتصبح بخير من أجل ابنتنا.

-من الأفضل أن أترك لكما هذا المال لعيشة كريمة من بعدي.

-لا تقل هذا ستكون بخير، ولكن أليس من الأفضل أن تحفظ حقك من هذا الرجل الذي شاركته؟

-هذا الرجل هو أخي.

-ولكنه لا يحبني..ألا ترى ما يحدث بين الأشقاء من حولنا؟

-إلا أخي.

رغم عنده معي إلا أنه ذهب بالفعل ليغير عقد الشراكة الصوري بينهما ليصبح باسمي، لكن أخاه نفى وجود عقد من الأساس وحدثت مشادة كبيرة بينهما عاد على إثرها حزينًا كسيرًا، نام في فراشه ولم يصحُ،

ذهب سريعًا هذه المرة حتى المبلغ الذي وفرناه لعلاجه لم نصرفه بالكامل، هاتفت شقيقه للقيام بإجراءات الدفن والعزاء، حملت الجدة طفلتي ظلت تقبِّلها وتجلسها على قدميها، تريد أن تأخذها مني مرة ثانية، لن أسمح لها أبدًا، قالت: أحضري ملابس شذا وملابسك لتأتي معنا البلد.

–ولماذا نأتي معكم؟

–لحضور الجنازة والعزاء.

حملت ابنتي من فوق قدميها: أنا وابنتي متعبتان، عبد الحميد مات وانتهى الأمر، ودعته هنا ولن يفعل ذهابي شيئًا.

–يا ابنتي لا يصح.

–هل ستمنحينني ميراثي إن جئت؟

هبت واقفة: يا للعار عليكِ، لم يُدفن زوجك بعد وتتحدثين في ميراث، حقيرة.

استندت إلى عصاها وهبطت الدرج منادية أبناءها أن يحملوا الفقيد ويسيروا خلفها، لا يهم كل ماتقوله عني هي من الأساس تكرهني ولن تمنحني قرشًا من مال عبد الحميد ولا أخاه سيفعل، أنا أحفظ الأحداث جيدًا، لن يتغير شيء، الآن معي مبلغ جيد والذهب سأبيعه وأحتفظ بالمال لأقدم في مدرسة شذا العام القادم، بعد شهرين قامت الثورة وتوقف عملي وذهبت فورًا للعمل في الشركة التي قبلتني، لا وقت للبحث والتجريب، قدمت لشذا في إحدى المدارس التجريبية ودفعت لها القسط الأول، شعرت بسعادة كبرى لتصحيح حياتي، ومسار حياة ابنتي، لم أعلم أي شيء عن البلد أو جدة ابنتي، عشنا أنا وابنتي حياة سعيدة حتى أتمت العاشرة، عملي البسيط يكفينا والفوائد السنوية تسدد المصاريف الزائدة. بعد عام التقيت نادر، صديق مدير الشركة، يحضر كثيرًا إليه ويحدثني المدير عنه أكثر، في الخامسة والثلاثين من عمره، أي في مثل عمري تقريبًا، تزوجنا ليصبح أبًا حقيقيًّا لابنتي، حتى هي أحبته كأبيها، نادر شاب وسيم طويل القامة لا يختلف على وسامته اثنان، وربما لذلك لم يتزوج من قبل،

يشبه آلان ديلون إلى حد كبير، مازحته في مرة: بالتأكيد عرفت الكثير من النساء، لماذا لم تستطِع إحداهن توريطك في الزواج؟

ضحك: إذًا فأنتِ ورطة.

-أجبني من فضلك.

-لأني لم أعرف الحب بحق سوى معكِ.

-كاذب.

-هادية.. أحيانًا نتوهم أننا نحب من خلال نظرة الآخر لنا، انبهاره بنا، لكن الحب الحقيقي هو الذي يجبرنا على الشعور بالمسؤولية والالتزام.

-أنا من جعلتك تشعر بذلك؟

-بالتأكيد، وسيظل شعوري نحوكِ بكامل الالتزام حتى أموت.

-لا تقحم الموت في حديثنا أرجوك.

-أفهم تجربتك المريرة، ولكن ما شعورك أنت بعد هذه التجربة؟

-ربما لا تصدقني ولكني ولدت معك من جديد.

-أصدقك.

أشعر بتغيرات نفسية وجسدية، إرهاق واعياء، أنا حامل، سننجب شادي،

حبيبي أفتقدك، أخيرًا ستأتي لتكتمل سعادتنا، تقف شذا خلفي تساعدني في كل شيء، تنظر إلى انتفاخ رحمي تربت على الصغير في الداخل وتحدثه، كل يوم نحكي له حكايات طويلة معًا، تعشق شذا الرسم والتلوين وزراعة النباتات، أعد لها الشرفة، تزرعها بنفسها لتزهر وتثمر، فتطلب مني قطة، أطلب منها تأجيل القطة لبعد ولادتي بسلام، يأتي صغيرنا شادي، تكرس شذا وقتها له مثلي تمامًا، تعتني به كأنه ابنها، تتقدم في دراستها، تحقق تفوقًا في الرسم وتحصل على جوائز عديدة، أخبرها أنني فخورة بها فتقول لي هذا بفضلك ياماما.

تعانقني وتقبلني: أحبك يا ماما.

هل تمكنت من تصحيح حياتي بالفعل؟ ولكن لايزال هناك جزء عالق بداخلي يؤلمني، لو أنني اتخذت مكان ابنتي هل يمكنني أن أشعر بما كانت تشعر به وتفهُّم ما كانت تعانيه أو ما أظن أنها عانته؟ هل سأتخلص حينها من الشعور القاتل بالذنب؟

أصحو في الغرفة الرمادية ذاتها، الصمت يعم المكان، لا وجود لكل هؤلاء الأشخاص، أدرك الآن حقيقة كل شيء، فهمت الآن أنني هنا لتلقي العلاج والتحدث مع طبيب لتقبل الأمر، ربما لم أتمكن من العودة بالزمن إلا من خلال خيالي، ولكن بالتأكيد شذا تعلم أني في ظروف أخرى اخترتها هي، واخترت الحياة معها، هي تعلم بالتأكيد.

الآن أفهم بعض الأشياء، لم يكن الأمر بهذا السوء، إنما هي قدرتنا على تقبل الأقدار، أحيانًا تكون هذه الأقدار فوق قدرتنا على التحمل، لا يمكننا استيعاب الحوادث القاسية تلك، كيف يمكنني تصور أن ابنتي ماتت مختنقة؟

ولكن لا يمكن للأم أن تحمي وليدها إلى الأبد، لا يمكننا حمايتهم من أقدارهم، ليس لمسؤوليتنا عنهم دخل في ذلك، لا يجب أن نمارس جلد أنفسنا في شيء خارج إرادتنا، شيء قدّرته قوة أعلى، هي الموت.

لا يمكننا أن نقف أمام الموت حتى إن كانت ابنتي صغيرة جدًّا عليه.

لم يكن ذنبي الأكبر في تركي لها مع جدتها أبدًا، كل الجدات حنونات، لقد راعت ابنتي وكفلتها وأحسنت تربيتها حتى أن ابنتي تعلقت بها وأحبتها ربما أكثر مني، لم تكن هذه الصورة القاسية التي ظلت عالقة في ذهني تجلدني سوى ضلالات وأوهام في رأسي أنا فقط.

ما أكتبه هو آخر تدريب طلبه مني الطبيب شاهر، طلب أن أكتب الصورة الأخيرة للحدث في ذهني، ومشاعري، وأخبرني أن بناءً عليه سيقرر خروجي من هذا المكان، هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها منذ أن دخلت هنا أنني هادية، الآن عدت إلى مقعدي متقبلة أقداري ولكن لا تزال شذا تطل على رأسي تخبرني ببعض الأشياء.

شذا

ماذا لو أننا لم نمت، ألا يمكننا الاستمرار في هذه الحياة يا جدتي، ننشر عطرنا في المكان فنعود لأحتضن أمي وأستكمل معها حياتها، حتى لو كطيف يمر بجوارها فأرى شادي وهو يكبر وأخفف عنها حزنها وافتقادها لي، لو أننا لم نختنق لو كان قد سمعنا عمي وفتح الباب الضخم قبل ذلك بدقائق فقط، لو أننا استطعنا أن نحطم زجاج النافذة قبل أن تضعف قوتنا ونقع في أرضية الغرفة جسدين ثقيلين نسعل بينما روحينا تصعدان إلى السماء، كان سينقذنا عمي ويركض إلينا ليفتح الباب ويخرجنا معًا إلى الهواء ثم يتصل بالإسعاف، وعندما نسترد عافيتنا بعد ساعات ستصرين على أن في وجودي هنا خطرًا كبيرًا على حياتي، تهاتفين أمي وتعتذرين لها، تخبرينها أنكِ كنتِ مخطئة وأن عمي سيحملني إليها، أسمعك يا جدتي كأني أعيش معك هذه التفاصيل، تمسكين بالهاتف وأنتِ تجلسين على أريكتك المفضلة في غرفة استقبال الضيوف، تمسحين على شعري وأنتِ ترين السعادة في عيني. تقولين: نعم سيأتي بها حتى منزلك، أعطيني العنوان.

تشعرين بارتباك أمي فتقطعين حديثها: هادية.. أنا أعلم أنكِ تزوجتِ، هذا حقك، وشذا ستكون معكِ من هذه الليلة، هي تنتظر هذا بفارغ الصبر واسمحي لي أن أزوركم عندما أشتاق إلى شذا.

أركض لأجهز حقيبتي وأستعد للسفر مع عمي، المباني في الطريق عالية جدًّا، والمحال التجارية والمقاهي مذهلة، البشر رائعون، يشبهون من نراهم في التلفاز كل يوم، نصل إلى بناية ضخمة، نصعد طابقين، يحمل عمي حقيبتي، يطرق الباب ليظهر نادر الذي استقبلنا بحفاوة، ثم تظهر أمي من خلفه أقفز في ضمتها، تحتضنني بكل قوتها ومشاعرها، أقبِّلها كثيرًا وتقبلني: أحبك كثيرًا يا أمي.

يظهر الصغير يحبو من آخر الشقة مبتسمًا فأركض نحوه لأحمله: لم يبكِ يا أمي، هل عرف أني أخته؟

-بالطبع، هو يشعر بكِ.

على العشاء اجتمعنا حول مائدة الطعام،

عمي يتحدث بود ثم يذهب على وعد بالعودة لزيارتنا بصحبة جدتي، يمكننا ياجدتي استكمال كل ذلك من عالمنا أختار أن أعيش هنا مع أمي وأخي.

القسم الثالث

نادر

قد يحبك العالم لكمال صفاتك وجمال ما تبدو عليه، ولكن شخصًا واحدًا سيحبك بجميع نواقصك.

قد تضطر إلى مرافقة مريض نفسي، تعاشره وتتجنب منه، متأكدًا تمامًا من حبك له ومتحملاً كل صنوف الأذى لأجله، المحب يقف ليحارب دائمًا، لا يتخلى أبدًا، لا يخذل شخصًا أحبه بصدق. بدأت قصتي مع هادية عندما التقيت بها في شركة صغيرة يديرها صديق لي، علمت منه أنها أرملة عملت سابقًا في مجال السياحة وفي نهاية عام ٢٠١٠ توفي زوجها، وعندما عادت إلى العمل كانت شركات السياحة قد توقفت تمامًا في أعقاب أحداث يناير ٢٠١١، وبعد أن كان عملها هو الذي تتكئ عليه باطمئنان بالغ، يمنحها المال الوفير ويهيئ لها معيشة بمستوى جيد، أصبحت بلا عمل وبلا دخل، كلما اشتدت بها الأزمات المالية كانت تعود إلى ابنتها، تستقبلها الجدة بحفاوة، حتى تطالبها هادية بميراثها عندئذٍ تشتعل الخلافات فتعود هادية إلى بيتها في القاهرة تبحث عن عمل يكفي للمأكل فقط، حتى استقرت كسكرتيرة لدى صديقي.

كانت جميلة ببساطتها ووجهها المريح، شعرها القصير على الطريقة الفرنسية بني اللون، وجهها الرفيع وقسماته البريئة الرقيقة جدًّا، تضحك فجأة وتتبدد ابتسامتها فجأة أيضًا بشكل يرهبني.

أخبرتني في أحد لقاءاتنا أنها ندمت كثيرًا على تركها ابنتها لدى جدتها لأبيها، وأن كل ما تفعله الآن هو فقط من أجل عودة ابنتها إلى أحضانها، كنت وقتها منجذبًا لها بشكل جنوني، وربما شعرت بي فبدأت في بث الإشارات، وكنت أستقبل تلك الإشارات بطمأنتها ولكن ليس بشكل صريح حتى عزمت على مصارحتها، دخلت مكتبها مقتحمًا وقت الاستراحة وتناولها للطعام، قالت: تفضل لا يوجد هنا سوى صديقتي السرية.

التفت حولي لم أجد أحدًا، فضحكت قائلة: أخبرتك أنها صديقة سرية.
قلت: هادية أنتِ تعلمين لماذا آتي إلى هنا بشكل يومي حتى إني بالكاد أتابع عملي.
أشاحت بوجهها في صمت مرتبك.
فألححت عليها: أنا أشعر أن لديكِ الشعور ذاته، هل شعوري صحيح؟
فأجابتني بخجل: أنت تعلم كل ما أفعله هنا لهدف واحد ليس لدي سواه.
-ابنتك، أعلم ذلك.
وقفت ومنحتني ظهرها كانت تخفي دموعها، شعرت بها ووددت لو ضممتها في تلك اللحظة، وددت لو أخذتها وذهبنا معًا لاستعادة ابنتها ونعيش ثلاثتنا معًا.
قلت: سأعمل معكِ على هذا الهدف أعدك، فقط اقبلي الزواج.
كانت التفاتتها لا تنسى، فتنة امرأة قوية وحزينة تمنحك مع كل مأساتها منتهى الحب.
كل يوم يمر أشعر فيه أنني أعرفها منذ زمن وأننا شردنا فضعنا من بعض في الطريق والآن عدنا، بعد شهر من اللقاءات في مكتبها وطلبي المتكرر والتأجيل من ناحيتها، دعوتها أخيرًا على العشاء في أحد المطاعم النيلية، ارتدت فستانًا أزرق رقيقًا، قبَّلت يدها فوقفت برهة بابتسامة خجول قائلة: انتظر سأقدم لك ابنتي.. شذا.
ورفعت يدها إلى اليمين.
قلت في تلقائية: هل هذه أيضًا كصديقتك السرية؟ أنتِ تعيشين في عالم سري إذًا.
فضحكت واعتبرتها مزحة مميزة، ربما تتعايش مع حزنها بمثل هذه المزحات، في هذه اللحظة تسلل بداخلي شعور أكبر بالمسؤولية تجاهها، شعرت أنها ابنتي وأنني مسؤول بشكل كامل عن محنتها وعن كيفية جعلها بلا حزن وبلا مأساة.
في ليلة العرس كانت تتألم كثيرًا لأن ابنتها ليست معنا، بكت أكثر من مرة وكفكفت دمعها، قلت: ولماذا البكاء؟ نذهب غدًا ونأتي بها، أنتِ الآن حياتك مستقرة ويمكننا نقلها إلى مدرسة هنا وسأتكفل بكل ذلك.
-لا.. لا أرغب في ذلك، لا أريد لأهل أبيها أن يعلموا بزواجي.

-وماذا في هذا؟ أنتِ لا تريدين مالهم، أنتِ تريدين ابنتك فحسب.

-وابنتي شأنها أكبر من قصة المال والميراث، لن تقبل جدتها أن تعيش ابنتي معي بعد زواجي والقانون معها، وربما حرمتني من زياراتي لها، على الأقل الآن يمكنني الذهاب لرؤيتها.

-ولكنكِ تتألمين، عندما قررت الزواج بكِ كنت أفكر في حل المشكلة لا تعقيدها.

- أنت أنقذتني بالفعل، منحتني حياة جديدة وحبًّا، وهذا يكفي.

في الصباح التالي أيقظتني برقتها لنتناول فطورنا معًا، جهزت المائدة بأشهى المخبوزات والحلوى مزينة بذوقها الرفيع، جلست وأمسكت بيدها، قبلتها، كانت لا تزال واقفة تنظر إلى المائدة إن كان ينقصها شيء، قلت: اجلسي لنفطر.

-لحظة سأنادي شذا.

ارتبكت توقفت الكلمات في حلقي، ثم انتبهت لا بأس إنها مجرد لعبة، وهي تدرك جيدًا أنها لعبة، سمعتها تقول: يا شقية تأخر الوقت ما كل هذا النوم؟

ثم التفتت إليَّ: ما رأيك أليست لعبة لطيفة؟ تقتل الوقت والوحشة.

-لا وحشة في وجودك حبيبتي.

-نقتل الملل.

-ولا ملل.

-ها قد أتت أميرتي.

سحبت مقعدًا إلى جوارها وتابعت: اجلسي، لا تخجلي.

منذ تلك اللحظة وأنا أمارس معها اللعبة بصدر رحب، وضعت بعض اللقيمات على طبق الصغيرة وقلت: لن تخجل مني بالتأكيد.

*****

أحببت الأمر واعتدته، إذا كانت هذه هي وسيلتها الوحيدة للتحرر من الألم والحزن، فلا بأس، أنا أحبها وهذا الشيء لا يضرني ثم إنها تعي تمامًا ما تفعل، الأمر يشبه لعب الفتيات الصغار ومحاكاتهم لشخصيات تلفزيونية، أو لعب أدوار يتمنينها كأن تلعب الفتاة دور أميرة أو طبيبة أو مضيفة طيران، وبعد ذلك الاعتياد اكتشفت أن في الأمر تفاوتًا، فعندما تصبح علاقتنا جيدة بلا توتر وفي أعلى حالتها من السعادة والتفاهم، تختفي ابنتها من حياتنا تمامًا ويختفي كل الزوار الوهميين وتكتفي بوجودي، وينصب كل اهتمامها على شخصي حتى إنني أتمنى عودة الأشخاص، فكنت أبتكر أنا أشخاصًا وكانت تضحك، ولكن دون أي تمهيد تتكدر نفسيتها المتعبة فتعود بالكثير من الأشياء الغريبة التي لا يمكنني توقعها، فلا يمكنني توقع الزائر الجديد الذي سينضم لتناول العشاء معنا في هذه الليلة بعد عودتي من العمل، أحيانًا يكون والدها وأحيانًا أمها، وقد نجتمع في ليالي رمضان لنتناول الإفطار والسحور بصحبة العائلة.

كان الأمر بسيطًا كلعبة لطيفة للتسلية، ولكن اللعبة أصبحت تكبر يومًا بعد يوم وتأخذ مسارات مختلفة، في عطلة نهاية الأسبوع كانت هادية تتأهب لزيارة والدها الوهمية لنا، فتصف رقعة الشطرنج على المكتب في الحجرة التي خصصتها للعمل في المنزل، كنت ألعب بمفردي وتسعدني ضحكاتها وهي تتصور أنني أتشاكس مع والدها فأهزمه ليغضب وينفعل بينما تضحك هي وتحاول ترضيته، تقول: لا يمكنك أبدًا هزيمة أبي في الشطرنج هو من ترك لك هذا الدور.

ولكن في تلك الليلة كنت منهكًا تمامًا ذهنيًّا وجسمانيًّا ولكني مجبر على استكمال العمل، لا أدري هل غفوت فجأة لدقائق؟

لا أعلم يقينًا، ولكني رأيت والد هادية، يدخل الحجرة بخطوات واثقة، يبتسم وهو يضبط ياقة قميصه بفخر: أنا من سيفوز اليوم.

جلس أمام مكتبي في الجهة المقابلة لي أمامه عساكر اللعبة الخشبية باللون الأبيض، بدأنا اللعب وكان شديد التركيز، اختفت ابتسامته المرحة وصار أكثر جدية،

لم أتمكن من مجاراة حركاته السريعة، لا يستغرق وقتًا في التفكير، حتى قتل ملكي بوزيره، أطلق ضحكة عالية: أين هادية لترى هزيمتك، لماذا نامت مبكرًا هذه الليلة!

قلت: لنلعب دورًا آخر.

-غدًا، كل ليلة سآتي لنلعب معًا.

يعلو صوت منبه هاتفي في الساعة السابعة صباحًا وأنا نائم فوق أوراقي على المكتب، أنهض لألملم أوراق العمل، وأركض لأرتدي ملابسي، في الطريق تذكرت والد هادية وزيارته الغريبة، بالتأكيد كنت نائمًا بسبب إرهاق العمل، فغفوت فجأة وحلمت به، ولكن كيف لحلم أن يكون بكل هذا الوضوح كأنه حقيقة؟

انتهيت من عملي على مضض، كنت متعبًا ورقبتي تؤلمني، كانت هادية في استقبالي، متألقة ومتوازنة، إذًا ستختفي الأشباح من منزلنا اليوم، دخلت حجرة العمل وضعت حقيبة أوراقي على المكتب، لفتت انتباهي رقعة الشطرنج، كانت كما هي تحمل الملك الأسود وأمامه الوزير الأبيض في وضع القتل، هل ألعب في أثناء نومي؟

لا يمكنني تفسير ما يحدث أبدًا، ولو أن الأمر يتوقف عند حد معين يمكنني أن أعتاده ولكن المشكلة أن الأمور تتطور ولا تتوقف عند حد معين أبدًا، المأساة تكمن هنا.

على طاولة طعام الغداء قلت:

أتعلمين؟

نظرت إليَّ هادية باهتمام بينما تطعم صغيرنا شادي.

تابعت: لقد لعبت مع والدك بالأمس.

هتفت: حقًّا؟ ضحكت كثيرًا ثم تساءلت: كيف؟

-في منامي.

نهضت بمقعدها لتلتصق بي وتنظر في عيني باهتمام وشغف شديدين: أأنت جاد فيما تقول أم تكذب؟

-ولماذا أكذب؟ لقد رأيته في منامي.

-وكيف كان شكله، هيئته، ملابسه؟

-أنيقًا ومميزًا، رجل رائع، لعب بمهارة فائقة.

-رحمه الله.

همست بها فاطمأننت أنها تدرك ما تفعل، تدرك أن أباها ميت.

ولكن ازدادت حيرتي لماذا تفعل هذا بحياتنا، تسلل إليَّ بعض الضيق من كل ما يحدث.

*****

في المساء

عندما عدت لأستكمل عملي لمحت رقعة الشطرنج، كان لا يزال ملكي مقتولاً بالوزير الأبيض، هل كنت ألعب في أثناء نومي؟ هذا أشد خطورة من السير في أثناء النوم، هكذا تطورت اللعبة حتى كدت أشك في قواي العقلية.

أمي مريضة بفعل السن تهاتفني بشكل يومي، أتمنى أن أضمها إلى منزلنا، أتحدث مع هادية في الأمر، فتجيب: لا يمكنني رعاية اثنين.

-أي اثنين؟

-شادي وأمك

-ولكن أمي ستكون تحت رعايتي أنا، افعليها لأجلي على الأقل، لقد استقبلت نصف أفراد عائلتك حتى أصابني الجنون.

صمتت تمامًا ثم حملت صغيرها وأغلقت خلفها حجرتنا، لا أدري كيف قلت ذلك، كيف خلطت الخيال بالحقيقة والجد باللعب.

لم نستمر في الزعل كثيرًا، ففي صباح اليوم التالي تلقيت مكالمة هاتفية ملحة، في السادسة صباحًا قبل رنين المنبه، أغلقت الخط ولكنه لم يكن هاتفي، كان هاتف هادية، سمعتها تهمس: شذا.. لماذا تتصل الآن؟

-ابنتك تستيقظ مبكرًا كل يوم.

تتردد في فتح الخط ولكن مع إلحاح المتصل تفتح الخط، كأن قلبها كان يشعر أنها لن تجد صوت ابنتها وإنما جاءها صوت عم ابنتها ليخبرها بخبر مفجع على ما يبدو، اختنقت الكلمات في حلقها وتعلقت الدموع في عينيها.

قلت: ماذا هناك؟

بالكاد نطقت: جدة شذا.

-ماتت؟

-احترقت.

انتزعت منها الهاتف لأتأكد من أن ما تقوله حقيقي وليس من خيالها كباقي الأشياء التي نعيشها يوميًّا، أتاني صوت الرجل، أخبرته أنني زوج هادية، لم يهتم فالحدث كان أكبر من كل ذلك، قال: ألن تأتيا لحضور الجنازة والصلاة عليهما؟

-عليهما؟ من الثاني؟

-شذا.

لا يمكنني وصف ما شعرت به في هذه اللحظة، نظرت إلى هادية، داخل عينيها مباشرةً، لم تُظهر أي تعبير، حالة إنكار واضحة، تبكي الجدة وتتساءل كيف ستعيش شذا، ثم تخبرني أننا يجب أن نذهب لنحضر ابنتها لتعيش معنا وفي هذه الحالة فقط ستوافق على أن تعيش أمي معنا، ترجوني أن أفعل ذلك، أن آتي لها بشذا، لا يجب أن نتركها وحيدة، لقد قتلت النيران جدتها أمام عينيها، هي بالتأكيد في حالة نفسية سيئة، وعدتني أن تستقبل أمي أفضل استقبال وتهتم بها إن فعلت هذا، أما أنا فقد أصابني الخرس، أتمنى أن أهرب إلى عالم موازٍ كذلك العالم الخيالي ألوذ به لنخرج من كل هذا الألم، يا الله هل فقدت هادية إلى الأبد؟

المحب لا يفقد الأمل أبدًا، يفعل كل شيء لأجل استمرار العالم الذي يريده، استمرار الحب والاستقرار، حتى إن كان في سبيل ذلك يعيش فترات طويلة من الوهم،

المهم ألا يهتز هذا العالم، أن يبقى الحبيب، والعائلة والبيت.

*****

كان يومًا مرهقًا ومؤلمًا، رفضت هادية بكل جوارحها الاقتناع بوفاة ابنتها، عرفت أنهما اختنقتا ولم تحترقا ولكن طبيعة الميتة لن تؤثر في تقبل هادية للأمر، فكرت أنه من الأفضل أن تظل هادية هكذا لا تعي شيئًا، متيقنة أن ابنتها معها وستعود بها إلى منزلنا، وتوقعت كل ما يمكن أن يحدث وكنت مستعدًّا له تمامًا، ولكني فكرت في محاولة أخيرة أن ترى ابنتها في كفنها الأبيض، وتدعو لها، أن تسير في الموكب الجنائزي الذي يضم القرية بنسائها ورجالها، دخلنا الغرفة نلقي عليها نظرة وداع، شادي نائم على كتفي وهادية تنظر إلى شذا بحنان ترسم ابتسامة حالمة على شفتيها تحدثني دون أن ترفع عينيها عنها: انظر نائمة كالملائكة، سنتركها نائمة لا داعي لإيقاظها، سننتظر حتى تفيق.

تقترب منها تمرر يدها على وجنة شذا وجبينها، تقبلها، يخيل إليَّ أنها بكت، سقطت الدموع من عينيها على وجه شذا فمسحتها بيدها، هي تدرك وتنكر كالعادة، لعبة أخرى أشد قسوة.

في الجنازة قالت: انظر كيف جدة شذا محبوبة من الجميع هنا، لكِ كل الحق أن تلازميها يا حبيبتي، ولكن لا تقلقي سأعوضك عن كل هذا تأكدي من ذلك.

تتحدث مع شذا باعتبارها تسير إلى جوارها في الجنازة، وعندما عادت إلى المنزل بعد الجنازة لم تلحظ اختفاء جثمانها بل تعاملت على أن ابنتها موجودة حولها في الغرفة.

كان يجب علينا أن ننضم إلى العزاء، الرجال بالخارج والنساء داخل المنزل، كنت قلقًا متوترًا، أقف على الباب أراقبها من بعيد ثم أعود لأقترب لأطمئن أن الأمور على ما يرام، في حجرة جعلوها لمبيتنا هذه الليلة وضعت شادي في الفراش وخرجت لأتفرغ لمراقبتها، عيناها تدمعان في صمت، رأيت المعزيات يتجهن نحوها يجلسن بجوارها ويربتن على كتفها، هل يتفهمن حالتها هذه؟ اقتربت أكثر فوصلت كلماتهن المواسية إلى أذني:

ربنا يلهمك الصبر.. الله يجبر قلبك.. هتفت سيدة في آخر مقعد: سيكتب الله لكِ بيتًا في الجنة.

فهمست أخرى: هي من ستنتظرك على باب الجنة.

أعتقد أنها لم تكن تسمعهن، كانت ترى بوضوح شذا متجهة نحوها حتى وصلت إليها وتعلقت بردائها، فسمعتها تقول: شذا حبيبتي، صح نومك يا صغيرتي، تعالي اجلسي إلى جواري.

انتفضت أجساد النساء وهن يتسابقن على لملمة أشيائهن والخروج من المكان ويتعرقلن في الطريق ببعضهن.

على الباب سمعت إحداهن تقول: روحا غالية وحفيدتها لن تتركا المنزل.. إذا كانت أعادت أرواح الغرباء ألن تتمكن هي من الرجوع!

هتف بها عم شذا: ماذا تقولين يا مخرفة؟

-ألا تعلم ماذا كانت تعمل أمك؟ اسأل فهيمة (مشيرة إلى سيدة مسنة تصعد الدرج) ألم تعِد إليكِ روح ابنك؟

تنظر إليها السيدة الباكية باستنكار ثم تدخل صالة السيدات، تجلس على إحدى الأرائك وتفتح المصحف.

قل عدد المعزيات بعد هذا الهرج، بقيت قلة لم يشعرن بالخوف الذي شعرت به باقي النساء، بل جلسن في ثبات يذكرن الجدة بالخير، اقتربت من هادية ربت على كتفها لم تشعر بي كانت هناك في عالمها الخيالي.

أغلقت السيدة مصحفها واستندت إلى كتف فتاة شابة حضرت معها، اقتربتا من هادية احتضنتها السيدة وقبّلت رأسها ووضعت في يدها لفافة وزجاجة صغيرة ثم انصرفتا، عند الباب التقيت بهما، قالت: أنت ابن غالية؟

قلت: لا أنا زوج هذه السيدة.

وأشرت إلى هادية فرحبت السيدة بي على عكس توقعي، قالت:

السيدة غالية أسدت إلينا معروفًا كبيرًا أنا وثروة، لا تصدق ما يقال عنها هي لم تفعل إلا كل خير، حتى عندما أرادوا أن يستخدموها في الشر أوقفت كل شيء، ولكن الشياطين أحرقوا حجرتها لعنهم الله، اهتم بهادية حالها غريب، الله معك.

حييتها ومشيت معها حتى الباب الخارجي احترامًا لها.

عندما عدت إلى صالة العزاء وجدتها خالية لم تبقَ واحدة من المعزيات انصرفن جميعًا، ولم أجد هادية أيضًا، صعدت إلى غرفة ابنتها وكما توقعت، وجدتها تجمع ملابس شذا في حقيبة كبيرة، تبحث في الغرفة عن أشيائها وهي لا تعلم أي من هذه الأشياء لشذا وأيها لجدتها، ولكنها كانت تضع كل ما يقابلها أو ما تشعر أنه لها.

قلت: ما كل هذه الزجاجات؟

-لا أعرف ولكن شذا تصر على أخذها معها.

-وما هذه الأشياء، أأعشاب هذه؟

-هذا بخور، أنت تعلم هي تحب جدتها وهذا ماتبقى مما يمكن أن يذكرها بها.

الكثير من اللفائف الغريبة، يا الله.. اقشعر بدني عند رؤية بقايا بشرية، تقلصت معدتي فانسحبت من الحجرة، لقد توقفت عن التدخين ولكني أحتاج الآن إلى لفافة تبغ وإلا سأفقد عقلي، دخلت الحمام، غسلت وجهي عشر مرات، اللعبة تكبر وتكبر، ولم يعد يمكنني السيطرة عليها، إنها تجرفني معها كموج البحر، ولكني أحب هادية، عشت معها أجمل أربع سنوات في حياتي، لا يمكنني التخلي عنها، سأتخلى عن روحي، شرفي رجولتي معها إن حدث، هي بعض مني، ماذا أفعل؟

سأستسلم للموج وأحاول إنقاذها.

في الطريق إلى منزلنا في القاهرة جلست هادية إلى جواري وعلى فترات تلتفت إلى المقعد الخلفي وتبتسم وهي تحدثني: أترى كيف تبهرها المدينة ومبانيها العالية؟

أومأت بالإيجاب، جولة جديدة من اللعبة وزائرة جديدة تنضم إلينا، عليَّ أن أتقن دوري جيدًا، وبدأت في الحديث عن التحضيرات التي سنفعلها لنستقبل أمي في منزلنا.

وصلنا المنزل أحمل شادي على كتفي، بمجرد دخولي وضعته على الأرض أمام الغرفة التي اختارتها هادية لابنتها، والحقيقة أنها هي من كانت تبيت فيها ثم تنهض في جوف الليل لتنام إلى جواري.

صدقتها وصدقت نفسي أيضًا، مارست اللعبة لدرجة الاندماج، اقترحت عليها أن نلحق شذا بالمدرسة، كان هذا هو التصرف الطبيعي في حال انتقال شذا للعيش معنا فعلاً، ولكن هادية أخذتنا إلى مسار آخر لم أفهمه، كيف تفكر هادية وفي أي اتجاه؟ هل هناك شخص يسيطر على أفكارها أم روح شريرة؟ أم أن روح ابنتها انتقلت معنا بالفعل؟

في أول ليلة وبينما كنت ألاعب شادي أتاني اتصال من هاتف أمي ولكن لم يكن صوتها على الطرف الآخر بل جليستها تصرخ وتستنجد بي، ركضت إلى الحجرة أجمع ملابسي لأرتديها بجوار الباب وأنا أدعو الله أن يمد في عمرها، أن أجدها بخير، عندما ذهبت بها إلى المستشفى كانت حالتها سيئة ولكن على المساء استقرت، وفتحت عينيها وتحدثت معي، فقلت لها فورًا: ستأتين معي، هادية هي من اقترحت عليَّ الأمر وستسعد بوجودك بيننا.

ابتسمت ثم أغمضت عينيها ويدها تضغط على يدي.

تركتها لتستريح، كنت مطمئنًا لوجود شريف صديقي في المستشفى، عدت، كانت حالة هادية غريبة، لا أعلم كيف تتحول الأفكار داخل رأسها إلى أشباح مرئية تفسد عليها عالمها الحقيقي.

****

قضينا يومًا كاملاً في تجهيز حجرة المكتب لتصبح غرفة نوم لنا أنا وهادية وشادي، وتجهيز غرفتنا لأمي لأنها رفضت أن تعيش أمي في الغرفة التي خصصناها للضيوف اعتقادًا منها أن ابنتها تعيش فيها،

بعد أن كانت اللعبة مقتصرة على استقبال شخص خفي كزائر لفترة قصيرة في منزلنا، أصبحت هناك ممارسات غريبة لذلك الزائر، عندما جرحت هادية نفسها حتى إن كان جرحًا سطحيًّا في معصمها، مت رعبًا، وقتها لم يكن هناك حل سوى اللجوء إلى طبيب أو استشاري يرشدني، لا يمكنني البقاء هكذا مستمتعًا باللعبة.

هاتفت صديقي شريف الطبيب المعالج لأمي ومدير المستشفى الذي نُقلت إليه، تحدث بعدها مع صديقه أكرم، تعارفنا وشرحت له حالة هادية وطلب مني أن يراها.. حاولت أن أجعلها تأتي معي لزيارة أمي ولم أستطِع، فجاء معي أكرم إلى المنزل وراقب تصرفاتها، بعدها كنت مصرًّا على نقل أمي إلى منزلنا، كنا قد جهزنا كل شيء لاستقبالها ولكن أمي حالتها تسوء، ونقلت إلى غرفة العناية المركزة، وقفت أتابع انتظام أنفاسها من خلف الزجاج فرأيت شريف ومعه أكرم أتيا معًا في محاولة للتخفيف عني.

هدأني أكرم بكلمات تطمئنني أنها ستصبح بخير. قلت: لو أنك تحل لي أمر زوجتي سترفع عني حملاً ثقيلاً، لأحمل فقط تعب أمي، أما الاثنان معًا ففوق طاقتي.

أجاب أكرم: ولكني بالفعل لم أتمكن من تحديد مشكلة زوجتك، فقد كانت متألقة ومبتسمة، رحبت بنا وجلست تحكي لي عن ابنتها بكل ثقة.

-هذا ما في الأمر، ابنتها، فليس لها وجود، ابنتها ماتت.

-الآن فهمت، يجب أن تحكي لي القصة كاملة.

-المشكلة أنها آذت نفسها، أموت رعبًا كل يوم وأنا أتركها بمفردها في المنزل مع ابننا، وأخاف من التأخير فتتأخر حالتها، وأشعر بالذنب لأني جاريتها من البداية.

-تعال إذًا لتحكي لي البداية تلك.

-سأحكي لك.

كان علينا أن نرسم خطة، مفادها أنني سأستمر في ممارسة اللعبة معها ولكن بإدارتي أنا، لتتقبل دخول المصحة، بل تطلبه هي مني، لكن وفاة أمي جاءت بغتة لتهدم كل شيء، تهدمني أنا نفسي،

رغم أنها دخلت غرفة العناية المركزة بعد أن أخبرني الطبيب أن لا أمل، ولكن يظل موتها مفاجأة، فكل شيء حدث فجأة، فقد كنت أجهز نفسي وبيتي لاستقبالها، ولم يمهلها القدر لتبيت في الغرفة التي أعددناها لها، لتعيش معنا كما كنت أتمنى ولو لبضعة أيام، لو أننا نملك القدرة على العودة إلى الوراء، قبل كل ذلك، قبل هذه اللحظة، كنت سأفرض الأمر على هادية وجئت بأمي إلى المنزل وخدمتها أنا، كنت سأشرح لها على الواقع أن أمي لن تكون عبئًا عليها، لو أن الأيام تعود إلى هذه اللحظة فقط، عندما هاتفتني أمي تشكو لي تعبها وتستغيث بي، فأذهب من فوري إليها، آخذها إلى شريف فيخبرني بأن الأزمة بسيطة ومرت ولكنه يحذرني من تركها في المنزل بمفردها يجب أن يبيت شخص معها ويلازمها، تحتاج إلى المتابعة، الاهتمام بمواعيد الدواء، يصر عليَّ..

"لا تتركها في بيتها بمفردها خذها إلى بيتك".

تتدخل أمي في حديثنا: أموت في بيتي.

قلت وأنا أركع أمامها وأمسك بيدها المرتعشة: بيتي هو بيتك.

تقبِّل رأسي: أنت حبيبي، لكن زوجتك لن تقبل، لا أحب أن أكون ثقيلة على أحد.

يا لعاري، كيف عدت بها إلى منزلها، كيف استجبت لطلبها؟ لماذا لم أعد بها إلى بيتي رغمًا عنها وعن هادية وعني أنا نفسي، لماذا لم أفعل؟

الندم يأكل روحي، لم أعد أحتمل، ولكن ما كان فوق كل احتمال، عندما عدت من جنازة أمي لأجد هادية تتعامل على أني أتيت بها إلى البيت وأنها أصبحت تسكن حجرتنا بالفعل، هل هادية تجمع الأموات؟

أبحث عن يد حانية، صدر يضمني بحزني، يتفهم ألمي ويقف معي في هذا الألم لنتجاوزه معًا وأستكمل حياتي وعملي، أتحدث إلى شقيقتي المغتربة عبر محادثات الواتس آب، فتجيبني: أنت من تمسكت بالزواج من أرملة، تحمَّل نتيجة اختياراتك.

لا أحد معي، حتى رحمي، لم تبقَ لي سوى هادية، لا أريد سوى أن تعود لي هادية التي أعرفها وأحببتها.

شيء واحد لم أفهمه في خيالات هادية وهلاوسها، فإن كانت اخترعت أمر وجود شذا لتعويض ذلك الفقد بداخلها، لماذا لا تستمتع بوجودها؟ لماذا تحول الأمر إلى أحداث غرائبية مرعبة؟

هل بداخلها شيء يرفض وجود ابنتها ويبرر لذلك ليستريح ضميرها، أم أنها عقدة الذنب الأولى لتركها؟

لماذا تبتدع كل هذه القصص عن عطر الموتى واستحضار أرواح الغائبين؟ وبينما أنا شارد أتت السيدة منيرة جليسة شادي لتقطع تسلسل أفكاري: سيدي أريد أن أتحدث إليك.

-ماذا؟

-قالت وجسدها يرتجف: هذه الحجرة مسكونة.

-ماذا تقصدين بمسكونة؟

- ياسيدي هذا البيت غريب، أنتم تتركونني مع الطفل أوقات طويلة ولا أحد سوانا في المنزل ولكني أشعر بأشخاص كثر.

-توقفي عن صب هذه الخرافات في رأسي.

-أنا أشعر بهم، وأشم رائحتهم، يجب أن تأتي بشيخ ليطهر المنزل، ابنة السيدة هادية ماتت ميتة بشعة وأنا أسمع أن من يموتون مثل تلك الميتات تكون أرواحهم قلقة منزعجة، وتزعج الآخرين لأن لديها ما تريد أن تقوله.

-ولو فرضنا، هل تظنين أنها ستزعج أمها؟

-بالطبع.. ألم تتركها لتموت هذه الميتة البشعة!

-ليست لديَّ طاقة لهذا الجدال، هاتِ شادي واذهبي الآن انتهي من أعمالك لترحلي إلى منزلك.

-أنا فقط أردت النصيحة ولم أرَ منكم سوى كل طيب.

-فهمت تفضلي.

الأمر كله غريب وأفكار البسطاء وتفسيراتهم ممتلئة بالخرافات،

ولكن رغم ذلك فأنا لا أجد تفسيرًا علميًّا لكل ما يحدث معنا وبالتحديد ما حدث في دور الشطرنج ووالد هادية، كلما تذكرت ذلك اقشعر بدني، ولكن على أي حال انقطعت زياراته، لن يجتمع بباقي الأرواح في المنزل فأنا لن أتحمل ذلك.

"المرض النفسي لا يؤذي صاحبه فقط، بل يفسد حياة كاملة".

يتردد في أذني صوت أكرم.. أجل حياتنا جميعًا، أنا وهي وأمي وشادي.

تهرع إليَّ عاقدة العزم على إدخال شذا إلى المشفى، أسألها هل ستتركينها هناك بمفردها؟

-لا بالطبع.. ولكن.. شادي.

-سأعتني أنا به لا تقلقي.. وأمي والجليسة معي ستساعدني.

كان عليَّ أن أستغل حماسها، جلست في حجرتها تفتح حقائب ابنتها وما جمعته من منزل الجدة، أشياء غريبة، قصاصات وأوراق، كانت الصغيرة تكتب مذكراتها مع جدتها وطبيعة عملها أيضًا، حاولت قراءة بعضًا من هذه الأوراق، ولكنها لم تسمح لي مطلقًا، الكثير من الزجاجات روائحها نفاذة، منها المحبب ومنها الكريه، ملابس للجدة..

قلت: لماذا جئتِ بها؟

-لا أدري.. لم آتِ بها بالطبع، كانت وسط أشياء شذا، أنت تعلم هي تحبها بجنون.

تشير لي أن أصمت فمن المفترض الآن أن شذا دخلت الحجرة مستسلمة لفكرة الذهاب إلى المصحة وكأنها تعلم مسبقًا، تجلس أمام حقائبها لتجمع ما تريد أن تأخذه معها بنفسها، تتغير ملامح هادية، تبكي وتنفعل، أسألها ولا تجيب، فمن المفترض أنني أشاهد المشهد وأحضره كله، حديث الفتاة العدواني معها والأرواح الأخرى كلها كانت هي هادية نفسها، أتحجج بالذهاب إلى أمي لتتناول الدواء، أقف على باب الحجرة أشعر أنني نصف مجنون فقد صرت أتحدث معها عن وجود أمي وأنا لم أتجاوز بعد فاجعة موتها.

لم أستطِع النوم، كنت أشعر بها وبكوابيسها تفزع منها ثم تعود لتستكمل نومها،

في الصباح هاتفت أكرم فأخبرني أن حالة هادية سيكون في استقبالها طبيب شهير صديق له ويشاركه في هذه المصحة ولكنه ابتعد عن المجال فترة وعاد، وعودته جاءت من حظ هادية، سيتابعها بنفسه طوال فترة بقائها هناك.

-ولماذا ابتعد عن المجال؟

-لأسباب شخصية كرس وقته للبحث عن فتاة يحبها وهي الآن زوجته.

توسمت فيه خيرًا فشعرت ببعض الارتياح لأن رجلاً معروفًا كطبيب جيد بل ممتاز سيتابع حالة هادية، بالتالي سأتركها هناك وأنا مطمئن. دخلت الغرفة رأيتها تمسك رقبتها تكاد تختنق، أيقظتها، غاصت بوجهها في صدري تحتمي بي فأخبرتها أنه مجرد كابوس ويجب أن نستعد للذهاب.

كانت لحظات صعبة وقاسية وأنا أصطحب هادية في سيارتي، وافتراضيًّا تجلس شذا في الخلف مع حقيبتها، تجنبت النظر إلى عينيها ودخلنا حجرة الطبيب أكرم، جلست وعيناها حائرتان تتفقد المكان، نظرت إلينا وقالت: أين ذهبت شذا؟

أجابها أكرم: هي الآن مع الممرضات، سيأخذنها إلى حجرتها، لا تقلقي بعد قليل يمكنك الذهاب إليها.

-لم تأخذ حقيبتها أرجو أن توصلها لها.

-سيدة هادية.. ألن تقيمي معها؟

-نعم بالطبع، لن أتركها.

نطقت هذه الجملة وهي تنظر إليَّ نظرة رجاء لم أفهمها، اقتربت منها ربت على كتفها فتشبثت بكفي.

همست: فلنعُد إلى المنزل يا نادر، أنا خائفة.

-لا تقلقي حبيبتي.

قبَّلت يدها وقاومت إحساسًا بالرغبة في البكاء،

دخلنا معًا الغرفة الرمادية بفراش وحيد أبيض وخزانة ملابس بيضاء وبساط رمادي قديم وكريه، لا أحب اللون الرمادي، لا أدري إن كانت هذه الغرفة ستجعل حالة هادية أفضل، دخلنا الشرفة فأعجبتها كثيرًا، جلست على أرضيتها تشم الزهور التي تعلقت في حديد سور الشرفة، تابعت بنظرها إلى أي شجرة ينتمي هذا الغصن وإلى أين يمتد، فانتبهت إلى حديقة المشفى أسفل شرفتها قالت: شجرة كبيرة رائعة ومثمرة ستحبها شذا.

خرجت من المشفى أكاد أبكي، لا أدري كيف فعلت هذا، لقد تركت قلبي هنا في هذا المشفى، والآن سأعيش كشخص ميت بلا روح ولا شعور.

عدت إلى المنزل، كانت الجليسة تنتظر قدومي لتذهب إلى منزلها. استقبلني شادي بلهفته المعتادة، أخذته إلى حجرتنا لينام، كم أفتقد وجود أمي الآن، أسمع كلماتها وأشعر بها حولي، لو أنها تحضر معي هذا الوقت العصيب، ستخفف عني وتحمل عني شادي عندما يبكي بهستيريا مفتقدًا أمه، كانت ستخبرني أن حديث الجليسة صحيح، ويجب أن آتي بشيخ إلى المنزل، أسمعها تقول: لا تذهب بزوجتك إلى المصحة، لا تعلم هل ستعود إلى رشدها أم تجن أكثر، كيف تفعل هذا بزوجتك، حبيبتك أم ابنك؟

-ولكني أفعل هذا لأني أحبها، ويجب أن تتلقى علاجًا سليمًا، لا وقت للركض وراء الخرافات.

-الله يقول: قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً.

-ولأننا يا أمي لا نعلم شيئًا عن هذه الغيبيات نلجأ إلى الطب والأسباب المادية للعلاج.

-كيف ستلجأ إلى أسباب مادية في علاج شيء غير مادي؟

هل هذا حديث نفس أم حديث دار بيني وبين أمي بالفعل؟

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أفتقد فيها أمي وحديثها لأجد الحديث يدور في خيالي كأنه حدث بالفعل سابقًا وأسترجعه في ذاكرتي، الخيال مثير ومشتت، الخيال بئر عميقة، يمكن أن يخلق لك ذكريات لم تعشها ومستقبلاً لن تذهب إليه،

يجعلك تعيش حياة أخرى مختلفة تمامًا عن حياتك، ذلك المسمى بالحيل الدفاعية.

نام صغيري، البيت صامت وحزين، أشعر بالجوع ولا أستطيع أن آكل سوى لقيمات صغيرة فقط لاستمرار الحياة ومقاومة المعاناة، أحاول أن أنام، أتقلب في الفراش، أطارد كل الأرواح التي مرت سيرتهم في منزلنا في الأيام الماضية، أستيقظ من كوابيسي في السابعة صباحًا، أستقبل الجليسة، أحضر معها فطور شادي، أتركه معها وأذهب إلى العمل، في الطريق أتحدث إلى أكرم، يطمئنني قليلاً.

كل يوم أتابع معه حالتها من خلال رسائل الواتس آب، أسأله كيف قضت ليلتها؟ هل أكلت، تتناول دواءها بهدوء؟ أم تنفعل عليكم؟ هل تتحدث إلى شذا؟

يتمزق قلبي في العمل بين محادثاتي لأكرم ومكالماتي للجليسة، أخطئ في المراجعات الحسابية، أنشئ جداول خاطئة بأرقام خاطئة، أمحو ما دونت وأبدأ من جديد، لا يمكنني استكمال العمل بهذه الطريقة، أذهب إلى المدير.

–ماذا بك يا نادر؟ أسبوع وأنت ترتكب أخطاء فادحة.

–أمر بظروف سيئة في المنزل، زوجتي مريضة، كما أنني لم أتقبل بعد وفاة أمي، أرجو أن تسمح لي بإجازة.

–أنت لم تترك لي مجالاً للاختيار يا نادر، حالتك لا تسمح بالعمل، تفضل سأمنحك أسبوعًا، أسبوعًا فقط.

أعود إلى المنزل في الخامسة مساءً، تركض الجليسة بمجرد وصولي، لم تكن تغيب عندنا لهذا الوقت فقد كانت هادية تعود مبكرًا ولكننا في وضع استثنائي بأجر استثنائي، تركض ملهوفة إلى واجباتها المنزلية وأبنائها الذين ينتظرونها، وأجلس أنا مع شادي أحاول طمأنته وتهدئته وهو ينادي أمه أكثر من ألف مرة في اليوم، كنت أظن أن لدي القدرة لملء فراغها، فقد كنت أقوم بمثل هذه الواجبات في وجودها، كنت أطعمه وأبدل ملابسه وينام على يدي، ولكن يبدو أن دور الأم لا يمكن للأب أن يعوضه أبدًا.

في الصباح وجدت رسالة من أكرم: اتصل بي فورًا.

هاتفته ليخبرني أن هادية تتصرف معهم على أنها هي شذا وليس كما كنت أقول أنها تتصور وجود شذا معها.

سألته: هل حالتها تسوء؟

–هذا التقمص لا يعني أن حالتها ساءت، بالعكس الهلاوس تقل مع الأدوية.

–من قال إن الهلاوس ستقل، ما دامت صارت شذا فسترى أشخاصًا آخرين غير شذا، أشخاصًا في عالمها، كالجدة مثلاً أو والد شذا.

–على أي حال إذا كانت هادية سترى والد شذا فهي ستقابله على أنها ابنته وليست زوجته.

–أتظن أنني أقول هذا لأني أشعر بالغيرة من هلاوس؟

–كلامك يحمل خوفًا ما.

–نعم لأني بدأت أشعر بالندم والتأنيب، لأنني جعلتها تترك المنزل، لقد ظللت أربع سنوات وأكثر متعايشًا مع هلاوسها وجنونها لأنني لا أريد أن أفقدها، فلا أريد أن أفقدها الآن.

–أفهمك يا نادر، صدقني أنت فعلت الصواب، كان خطأك في البداية في مجاراتها.

بعد هذا الحوار جاءت زيارتي الأولى للاطمئنان على حالة هادية وكان شريف ينتظرني هناك، أخبرني أكرم وهو يقرأ تقريرًا فوق مكتبه عن حالة هادية أن الطبيب المتابع لحالة هادية قال إن شذا تكن لي مشاعر عدائية تصل لدرجة الانتقام، وإنها قد تسبب لي أذى إذا عادت إلى المنزل، ارتبكت، هادية تؤذيني؟ هادية تحبني.

فقال: ولكن شذا تكرهك، أنت سلبت منها أمها.

–أنت تتحدث كأن هادية هي شذا فعلاً.

–هذا هو الوضع الآن، هادية اختفت تمامًا لم تعد معنا سوى شذا.

انتهى أسبوع الإجازة سريعًا، ولكني أحتاج إلى إجازة أكبر فأسبوع أو اثنان مدة قليلة جدًّا، سيفاجأ المدير بعد هذا الأسبوع الذي كرر عليَّ ألا يزيد بأنني أقدم استقالتي، فيصدر قرارًا بمنحي إجازة مفتوحة دون راتب، إن كنت سأذهب فهو لا يريدني أن أذهب إلى غيره أو أذهب إلى الأبد.

*****

أعود إلى المنزل أحاول رعاية طفلي، طعام وشراب وملابس ونوم، فالسيدة منيرة مربيتنا ولكنها لا تقبل المبيت وإن فعلته لا يكون على نحو يومي.

تحادثني لميس شقيقتي في المساء لتطمئن على أحوالي مع شادي، بقليل من المواساة والشفقة نحوي، ربما رق قلبها قليلاً بعد وفاة أمي التي لم تحضرها وبدأت تتعاطف معي، إلا أنها باغتتني بسؤالها: لماذا تتمسك بهادية تحديدًا؟ أرملة شابة وأم لبنت، شخصية معقدة ومهووسة ومريضة نفسية.

لم أتمكن من الرد على سؤالها فورًا سوى بكلمة واحدة مختصرة أني أحبها.

فعادت لتسألني: ولماذا تحبها؟

هل الحب له أسباب؟

تصر أنها لا تصدق مطلقًا فكرة أن الحب أعمى وأنني رجل ناضج وأعقل من أولئك الحمقى. قالت: نحن نحب بعقولنا قبل قلوبنا.

ربما كانت لميس على حق، بالتأكيد كانت هناك أسباب جعلتني أحب هادية، ليست بالضرورة أسباب عقلية ومنطقية، ربما أسباب نفسية وعاطفية، كانت دائمًا ما تمازحني بأني الشاب الوسيم الذي بكل تأكيد قد قطع أنفاس الفتيات خلفه ركضًا ولم يتزوج بأي منهن، ولكن الحقيقة أنني كنت على قول درويش العاشق سيئ الحظ.

الفتاة الوحيدة التي أحببتها في شبابي لم تكن سوى فتاة انتهازية طامعة، كل تطلعاتها مادية، تطلب الكثير عند كل لقاء وعند كل خلاف يكون ثمن الصلح باهظًا، لا تكف عن طلب الهدايا حتى استنزفتني، عرفتها في أيام الجامعة،

فتاة جميلة من أسرة متوسطة، والدها موظف في البريد ووالدتها لا تعمل، كنت أقود سيارتي ليلاً تحت المطر من القاهرة إلى مدينتها لأقضي معها بضع ساعات، وشرطها عند كل لقاء هدية، وبكل حماقة كنت أفعل، حتى تقدمت لخطبتها بعد التخرج، وتحملت طلباتها المبالغ فيها هي وأهلها، وتحمل أبي كل حماقاتي وخلافاتي معه بسببها حتى توفي بعد شهور من الخطبة. ومع بداية خروجي إلى العمل، استطاع أبي عن طريق شبكة علاقاته المتعددة أن يجد لي عملاً جيدًا محاسب في شركة عقارات، وفاته قلبت حياتي رأسًا على عقب، رغم أن عملي كان جيدًا فإني اعتدت أشياء كثيرة تفوق راتبي الحالي، بدأت أقتصد في المصروفات وأغير نمط حياتي، كانت صدمتي الأولى أنها لم تكن إلى جواري في حزني وفقدي، لم ترفع سماعة الهاتف لتطمئن على حالي وتواسيني، جاءت العزاء مع أمها كالغرباء ساعة وانصرفت، وبعد الوفاة بأسبوع بدأت الشكوى والطلبات، تريدني أن أصحبها إلى السينما، وغضبت لرفضي، ثم بعد قليل مارست ضغطها من أجل الحصول على نزهتها بطريقة أخرى، أنها تفعل هذا من أجلي، ولا بد ألا أستسلم للحزن وألا أظل هكذا في حجرتي منعزلاً ومكتئبًا، وافقت على مضض، ولكني لم أصدقها، وربما لأول مرة أفرق بين الكلام الصادق النابع من مشاعر حقيقية والكلمات المتلونة المصطنعة لغرض أناني.

ولأول مرة أخرج معها في مكان ولا أكون سعيدًا بوجودها، بدأت أراها بصورة حقيقية بلا غشاوة، إلا أني لم أتمكن من الخلاص من حبها بالكامل، الضغط الذي كان يحدث معي بعد فقد والدي أضعفني حتى تآكلت روحي، بينما هي تبتعد أكثر وتفتعل الخلافات لأنني توقفت عن منح الهدايا والعطايا والنزهات شديدة الرفاهية، ألحت عليَّ كثيرًا أن أشتري لها خاتمًا رأته في محل للذهب والألماس، يتعدى ثمنه الاثني عشر ألفًا من الجنيهات، في عام ٢٠٠٦ كان هذا المبلغ له قيمة كبيرة، يكفي أنه يعادل الشبكة التي قدمتها لها، ورغم ذلك اشتريته لها، كنت في حالة جنون فقد، أشتاق إليها إلى حد الذل، حالة إدمان لا يمكنني مواجهتها ولا التعامل معها بشكل صحيح لأشفى،

كنت مستسلمًا تمامًا، آخر لقاء لنا مرت عليه ثلاثة أشهر ولا أفهم لماذا تفتعل كل تلك الخلافات، أحاول التبرير لها عند كل موقف يؤذيني، قدت سيارتي متوجهًا إلى بيتها في ليلة شتاء ماطرة بغزارة تبرق سماها وترعد نهارًا وليلاً، وصلت إلى مدينتها في السادسة مساءً، هاتفتها أكثر من عشر مرات ولم تجب، أقف بسيارتي على جانب الطريق، وحيدًا غريبًا ومنكسرًا، أشعر أن العالم كله يلفظني، لماذا لا تجيب؟ لو أنها تفتح الخط سيشرق العالم من جديد، بعثت لها برسالة بأني أنتظرها وأحمل لها مفاجأة ثم أعدت الاتصال، أجابت أخيرًا ولكن بتعجرف شديد قالت: الآن جئت؟ بعد أن أبكيتني ورفضت أن تشتري لي الخاتم، أنت دائمًا حاد معي، تبكيني وتفتعل الخلافات.

-وليكن.. جئت لأعتذر ومعي الخاتم.

توقعت أن تهلل من السعادة، أن تقفز من مكانها وتأتيني ركضًا كما كانت تفعل، ولكنها أجابت ببرود: اتركه عند حارس العمارة وسيوصله لي.

-هل جئت كل هذه المسافة في المطر لأتركه عند الحارس؟

-لا أحد في البيت معي.. ممكن أن آخذه منك على الباب.

-لا.. أكيد لا.. انزلي أنا أنتظرك بجوار الباب.

-لن أستطيع، أنا متعبة، هل ستذلني من أجل هذه الهدية فتجبرني على النزول؟

-أجبرك؟ لا، لن أجبرك.. بعد اليوم أنا لا أريدك في حياتي نهائيًّا.

أغلقت الخط ولا أتذكر كيف عدت إلى منزلي باكيًا ممزقًا في هذه الليلة، احتفظت بالخاتم في درج مكتبي ليذكرني دائمًا بحماقتي حتى لا أقترف مثلها ثانيةً.

الفتيات الجميلات كثيرات يملأن الطرقات والمقاهي والنوادي وحتى في العمل، كلهن ماديات متعجرفات يتعاملن مع الرجل على أنه فانوس سحري لتحقيق رغباتهن المادية الأنانية المبالغ فيها، أما الحنونات اللاتي يحملن قلوبًا طيبة نقية إنسانية عملة نادرة الوجود.

ما لفت انتباهي لهادية اهتمامها بالجميع، روحها المعطاءة الودود لكل من في العمل، وحديث صديقي ومديرها حسن عن إخلاصها في العمل وتميزها فيه، فهو يدير مكتبًا هندسيًّا تقوم فيه هادية بأعمال السكرتارية وبعض الأمور المحاسبية، لديها طاقة كبيرة للعمل طوال اليوم، وقدرة على التعلم والابتكار، بجانب طاقة العطاء بالإضافة إلى طموح لا يتوقف.

لفتتني ضحكتها ومرحها وشخصيتها المسيطرة على المكان، وعندما علمت أنها أرملة وتعمل من أجل أن تحقق مستوى جيدًا من المعيشة لتضم ابنتها للعيش معها، أثارت فضولي أكثر، لأنها لم تكن تظهر عليها أي معالم لذلك الحزن في حكاياتها، هكذا نحن دائمًا صناديق مغلقة على أحزاننا وآلامنا نواجه العالم بوجه مسرحي يرسم الضحكة على الوجوه بينما داخلنا يبكي ويئن.

هل نحب لصفات معينة فيمن نحب أم أننا نفسيًّا بكل ما نمر به من خبرات وأحداث نكون مؤهلين لحب نوعية معينة من الناس؟

وجهت إلى نفسي هذا السؤال كثيرًا ووجدت أن السبب الثاني أقرب إلى الحقيقة، فلولا كل تجاربنا السابقة ما كنا لنهتدي لحب هذا الشخص بالتحديد الذي عثرنا عليه في آخر الطريق. رفضت أمي كثيرًا زواجي بهادية لأن بالنسبة إلى أمهاتنا زواج شاب لم يسبق له الزواج بأرملة يعتبر خطيئة.

تكرر عليَّ: يا ابني لماذا تكون هذه أول بختك؟

-أحبها.

-يلعن الحب كيف يذل.

أقبِّل يدها فيحن قلبها: أنت حر.. ولكن لا تعود لتشتكي لي.

-لن أشتكي.

وحقيقة أنني لم أشتكِ قط ولم أشعر أني بحاجة إلى الشكوى،

كنت دائمًا متفهمًا لكل الاختلافات بيننا ومتفهمًا لكونها أرملة وما تضمنه ذلك من تجارب وخبرات سيئة أثرت فيها نفسيًّا لترى كل هذه الخيالات، تعايشت مع كل شيء إلا أنها تحاول قتلي، كان أصعب ما مررت به عندما اكتشفت ذلك وحذرني منها أكرم، فبعد شهرين اتصل بي أكرم، قال: أريدك أن تأتي لزيارة هادية غدًا وتجهز نفسك لبقائها في البيت يومين.

-وهل ستعود إلى المنزل كشذا؟

-بالطبع هي الآن شذا، لذا كن حذرًا في التعامل معها، فبعد أن أخفينا كل متعلقاتها صارت أكثر عدائية.

ذهبت لأخذها، ظل طبيبها المتابع لحالتها "شاهر" يتابع معي خطوة بخطوة عبر محادثات واتساب، لم تكن زوجتي التي أعرفها، نظراتها عدائية، تتحدث معي كغريب ولا تريد أن تتحدث أصلاً، جلست في المقعد الخلفي للسيارة شاردة طوال الطريق، وعندما وصلنا إلى المنزل دخلت غرفتها فورًا وأغلقت الباب، أقصد غرفة شذا بالطبع، وهذه المرة عندما تتحدث بمفردها متوهمة وجود شخص آخر يتحدث معها كانت تتوهم وجود هادية، تظل تلومها وتصرخ في وجهها لأنها ذهبت بها إلى المصحة وأفسدت عليها عالمها الخيالي الذي كانت تراه، كنت أسمعها من وراء الباب تقول: كيف لأم أن تفعل هذا بابنتها؟

جلسنا إلى طاولة الغداء، كانت تتصور وجود أمي وهادية وتتحدث معهما كشذا، قالت شيئًا عن جلسات الكهرباء، عندما سمعت الكلمة قمت أبحث عن هاتفي كالملسوع أو المطعون فالكلمة اخترقت قلبي، كتبت لهما: كهرباء يا أكرم؟ كهرباء يا شاهر؟

رد شاهر: لا تنظر إلى الأمر بنظرة الأفلام القديمة، هذه الجلسات تأتي بنتيجة أسرع من العقارات التي أعراضها الجانبية كثيرة ومؤذية أكثر، كما أنها لا تتعذب مطلقًا فهي تكون مخدرة.

-لا بد أنها خافت، شعرت بالرعب من الفكرة، ألم يؤثر ذلك نفسيًّا فيها بشكل آخر؟
-تأكد أنها تتماثل للشفاء أسرع وستكون بخير، والأمر ليس بالصورة المترسخة في ذهنك من تعذيب ورعب.
-ولكنها تشكو كأنها تشكو لأمها بغضب لأنها عرضتها لذلك.
-هذا شعورها بالذنب تجاه ابنتها، دعنا نسير في الطريق لنهايته.

هل يوجد ما هو أصعب من ذلك؟ أن الشخص الذي تحبه وكنت واثقًا بأنك تملك قلبه قد اختفى، لا بالموت ولا الفراق، فجسده هنا أمامك أما عقله وقلبه في منطقة أخرى تمامًا، تبدل كل شيء فيه حتى أضحى شخصًا آخر رغم أنه يحمل ذات العين التي كانت لك مرآة ونورًا في العتمة يبثك الحب والثقة؟ أين لي بنظرتها المحبة الآن؟

بقيت هادية معنا ليلتين فقط لم تلمس فيهما شادي، لم تقبله أو تضمه، ولم تعبر عن افتقادها له الفترة التي قضتها في المصحة، نسيته تمامًا كأنها لم تعد أمه، صارت هادية هي شذا في كل تفاصيلها إلى درجة مخيفة، وكلام طبيبها شاهر زاد من خوفي، تحدث عن مدى كرهها لي وطلب مني أن أراقب كل تصرفاتها، كره هادية التي يملأ رأسها بأفكار وهمية سيئة، تتصور أنها مشاعر شذا لو أنها عاشت، فترى أنني السبب في ما آلت إليه شذا من مصير محزن لأننا تزوجنا، رغم أنني كنت أحاول مساعدتها على تحسين حياتها وضم شذا إلينا، ولكن لقلة تقدير منها وتسويف وكذلك بعض الخوف من المواجهة تأخرت في اتخاذ القرار وندمت بعد فوات الأوان، حين لم يعد يمكننا تدارك الأمر وتصحيحه، وهي الآن تعيش بين تحميل نفسها ذنب موت شذا لأنها لم تسرع في اتخاذ القرار المناسب الذي يحمي شذا، والعيش بأفكار وروح شذا نفسها والانتقام مني في هذه الدائرة. يوم مرهق لن أنام لليلتين كاملتين، لحظات عصيبة تمر عليَّ وأنا أراقبها، فقبل وصولها ركبت كاميرا في غرفتها وظللت أتابعها من حاسوبي الشخصي من اللحظة الأولى لدخولها الغرفة بينما تصورت أنني في جلستي هذه منهمك في عملي، وبمجرد أن فصلت كابل الكهرباء الخارجي أسفل نافذة غرفتها علمت ما تنوي فعله، اختارت لي

الموت صعقًا بالكهرباء.

درت في البيت أتظاهر بالبحث عن سبب المشكلة، ولمحتها وهي تفصل طرفًا من أطراف دواية المصباح في غرفة الجلوس وتظاهرت بأني التقمت الطعم الذي قذفته لي، تحاول إقناعي بأن الدواية أحدثت ماسًا تسبب في انقطاع التيار، ولكن المفاتيح في اللوحة لم تغلق ولم تحدث أي إنذار، ورغم ذلك تظاهرت بالغباء، وقفت على مقعد تظاهرت بأني أمسكت بالأسلاك لأعيد ربط طرفي الدواية، عندها أعادت هي الكهرباء فصرخت وسقطت من فوق المقعد وتقمصت أمامها دور المصعوق، أيشفيها هذا؟ يشفيها أن أموت، نصبت لي هذه الميتة بسادية وهي تعتبرني مسؤولاً عن بُعد ابنتها عنها وموتها، الآن تقتص مني، أكملت اللعبة عله يكون الفصل الأخير في هذه المسرحية السخيفة، شعرت بها بعد ذلك تركض نحوي وظلت تهزني وتبكي وتناديني حبيبي، ها هي هادية زوجتي وحبيبتي بدأت تعود، تمنيت لو قمت واحتضنتها ولكني تذكرت كلمات الطبيب فأتممت اللعبة، قامت فجأة وركضت إلى حجرة شذا وأغلقت الباب، قمت إلى حاسوبي الشخصي أتابع ما تفعل، مشهد جنوني تتحدث إلى نفسها كشخصين، تجلس على الفراش محتضنة الوسادة الصغيرة تتحدث إلى نفسها عني، هذه هي هادية تبكي وفاتي، ثم تنهض لتقف بجوار الفراش وتتحدث كشذا، تحدث أمها عن صناعة العطر لاستعادة روح زوجها من الموت، تتعاطف مع حزن أمها وتحاول أن تخفف عنها. ظللت أتابعها عبر الكاميرا وهي تتحدث مع ابنتها التي تريدها أن تذهب إلى المدرسة وتخبرها أن نادر مات كما ماتت جدتها ولن يعودا، الآن بدأت تتقبل فكرة الموت.

أنقل المشهد إلى الطبيب المتابع، يطمئنني ويطلب مني أن تعود في الصباح الباكر إلى المصحة، بالطبع يجب أن أختفي تمامًا من المشهد فأنا ميت، سيرسلون سيارة وممرضة ترافقها حتى غرفتها.

*****

تعود هادية إلى المصحة وتأتي الجليسة لترافق شادي، أذهب لأرتمي على صدر أمي وأبكي في منزلها الذي أجد فيه الراحة والطمأنينة كأنها لا تزال تسكنه، رائحتها في كل مكان حية وحقيقية لا حاجة لنا إلى صناعة العطر، يدور عقلي بتساؤلات كثيرة أشعر بأمي تحيبها وتربت على كتفي لتطمئنني، كل ما أتمناه ألا تكون غاضبة عليَّ لأن القدر لم يمهلني لأنقلها إلى بيتي لتلقى الرعاية اللازمة التي تليق بحبي لها، هل تدرك ذلك الآن؟ هل تشعر بي؟

أسمع صوتها بآخر كلمات لها: أنت حبيبي.. أريد أن أموت في بيتي.

المصائب لا تأتي فرادى، الخسارات لا تأتي فرادى، أشعر أنني غصن بلا شجرة ولا جذور تأخذني الرياح في مسارها لأدور معها دورتها بلا إرادة، ولا أدنى مقاومة، شهر آخر يمر، لا يزال الصغير يبحث عنها في المنزل، يناديها ويبكي، ثم يركض ليحتضنني لينام بين يدي بعد أن ينهكه البكاء.

تعود لميس لتراسلني، تنهرني وتتعجب من فعلي: المجنونة كادت تقتلك، كيف ستأمن على نفسك معها؟ كيف سترضى أن تستكمل حياتك معها بعد كل هذا؟ وليكن أنا أتفهم الشعور بالحب، ولكن أكثر سيدة رومانسية في العالم عندما يضربها زوجها حتى يكاد يقتلها تنجو بنفسها وتطلق نفسها منه حتى لو روحها فيه، ألم تكرهها بعد أن خططت لقتلك بكل هذا التشفي؟

-لا لأنها ليست هي حبيبتي، بل هناك أفكار غريبة عليها تحتل رأسها، أفكار أفسدتها هي نفسها وأفسدت شخصيتها وحياتها، هي تعاني مثلي، كيف أتركها؟ هل تتركين زوجك لأنه مريض؟

-ولكن مرضها يتسبب لك في أذى كاد ينهي حياتك.

-كل الأمراض تسبب لنا أذى، عندما مرضت أمك وبقيت أنا معها أخدمها قبل زواجي واشتدت أزمتها المرضية وطالت أصبت باكتئاب شديد استمر معي بعد شفائها.

- أنت تلمح أني قصرت معها، أليس كذلك؟

-لم أقصد ولكن لا تتدخلي في حياتي.

-لن أتدخل أبدًا، أنت أنضج من أن أسدي لك نصيحة أو أشعر بالخوف عليك.

*****

أتذكر الآن باقي تفاصيل الأيام التي جاريت فيها هادية، الأشياء التي جمعتها من بيت الجدة في أيام العزاء كانت مخيفة وغريبة بالفعل، لا أدري لماذا يحتفظ شخص طبيعي ببقايا بشرية لشخص آخر مهما كانت درجة حبه له، فالاحتفاظ ببقايا شعر وأظافر لشخص ميت وبقايا من رائحة عرقه شيء يدعو للريبة، ورغم أني لا أصدق في الأمور الغرائبية مثل السحر وتحضير الأرواح ولا أظن أنه يمكن لأحدهم جلب روح أو شيطان بممارسات غريبة، إلا أني شعرت أنه ربما يكون حقيقيًّا وهذه السيدة كانت تمارس شيئًا من السحر. اختلف عليها المعزون، منهم من رآها ساحرة تضر بالناس ومنهم من قالوا إنها أسدت إليهم خدمة عظيمة بعملها السري الغريب، هي من ابتدعت صناعة العطور هذه والتقطت هادية الفكرة من السيدات المعزيات، لملمت كل ما يمكن أن يساعدها لتستحضر روح ابنتها وبدأت في التقمص لتساعد نفسها على أن تصل إلى نتيجة ملموسة، فكرة تحضير الروح من خلال العطر هي الفكرة الوهمية التي زُرعت في رأسها وبنت عليها عالمها الخيالي هذا كله، مشجب جديد تعلق عليه خيالاتها مع أحبتها المفقودين.

في يوم عدت من العمل وجدت حجرتنا مغلقة بالمفتاح وهادية تصرخ ولكن صوتها لا يأتي من داخل الحجرة بل يأتي من الحجرة التي تقول إنها لشذا، ففتحت الباب وجدتها متقمصة شذا، سألتها عن هادية فبدأت تحدثني بحديث مستفز عن زوجها الراحل الذي تحبه، أغلقت الباب وحاولت أن أتمالك أعصابي ومشاعري وغضبي، مشيت إلى المطبخ لآتي بسكين أحاول بها فتح باب الحجرة، ولكني عندما فتحت الباب ودخلت كانت هادية في الداخل، حاولت احتواءها والتعامل معها على أنها شخصين بالفعل،

أنا لم أفكر قط في اللجوء إلى الطب النفسي فقد كنت أتعايش مع كل ما تراه، لذا في البداية عندما حدثتني عن أن ابنتها مريضة وتحتاج إلى العلاج النفسي رفضت الأمر، ولكن بعد هذا الموقف المؤذي لجأت إلى صديق لأستشيره والتقطت الخيط من عرضها المتردد لعلاج ابنتها، ثم بدأت الخطة.

*****

كذلك يوم أن دخلت حجرة شذا وحدثتني هادية وهي تتقمص دور شذا عن زيارة أبي، وأنها رأته وعلمها الخط وماذا لو أني أردت أن أقابله، كنت مرتبكًا في هذا اليوم وقلقًا، لم أفهم ما تفعله هادية، فرائحة أبي كانت تملأ المكان بالفعل، ليست فقط رائحة عطره التي تعرف نوعها لأني حدثتها من قبل عن اسم العطر الذي كان يستخدمه والدي طيلة حياته، ولكن كيف شممت رائحة جسده مختلطة بهذا العطر؟ هناك إيحاء ما يحدث، نوع من الوهم يؤثر فينا جميعًا، يجعلنا نرى ونسمع ونشم أشياء غير حقيقية، وهم كبير يتضخم داخل عقولنا، تخلقه خبراتنا السابقة، تجاربنا المؤلمة، الشعور بالذنب والفشل، هذا الوهم أحيانًا يجعلنا نتعلق بأشخاص غير مناسبين فنتوهم أننا نحبهم بشدة وأحيانًا يجعلنا نتوهم السوء في الذين نحبهم، وتكبر أفكارنا عنهم حتى تفسد حياتنا وعلاقتنا بهم، المرض النفسي يضخم هذه الأوهام، حتى أنا لأربعة أعوام قضيتها مع هادية كنت أغذي وهمًا كبيرًا داخل عقلي استجابة لوهمها حتى فسدت حياتنا بالفعل، كيف يمكننا السيطرة على هواجسنا ومخاوفنا؟

الهواجس جعلت هادية تتباطأ في ضم شذا إليها ففقدتها إلى الأبد، ثم جددت هواجسها القديمة بهواجس مترتبة على هذا الفقد، الشعور بالذنب والندم الشديد.

أبعث إلى شاهر الطبيب المتابع الذي سيعود ليسافر خارج مصر بعد استقرار حالة هادية: كيف يمكننا التحكم في هواجسنا؟

فيجيب: بالعلاج النفسي الذي نفعله الآن.

–ولكن هذا عند تفاقم الهواجس لتصبح هلاوس كما حدث مع هادية، ولكن كيف يمكننا السيطرة على القلق والمخاوف والندم؟ أنا أيضًا أشعر بالندم الشديد تجاه أمي، أشعر بها تحدثني وأسمع كلماتها في رأسي، وألوم نفسي كثيرًا لأني لم آخذها إلى بيتي وتباطأت عن فعل ذلك.

–يجب أن تتحدث إلى نفسك كثيرًا في الأمر وتتقبله برضا، تقبل الجزء القدري الذي ليس لك دخل فيه، وتقبل خطأك الذي مر وقت تصحيحه، ثم حوِّل كل ذلك إلى فعل إيجابي، أن تدعو لها مثلاً، أن تتذكر آخر اللحظات الجيدة بينكما، هي بالتأكيد ماتت راضية.

كل مساء بعد العمل أتحدث مع الطبيب المتابع لهادية لأعرف تطور حالتها، المؤشرات جيدة لأنها لم تعد تقوم بأي نشاط يخص شذا بعد أن نظفوا الحجرة من كل شيء يخصها، وبدأت تسأل عن شادي، ولكنها تبكي كثيرًا، هذا لأنها تعتقد أنني مت، ولكن لا نعلم هل تعي أنها قتلتني وأن شذا لم تكن هنا بل ماتت؟

هذه النقطة لم تحسم بعد، لو أدركت موت شذا سأظهر أنا لتعود معي وينتهي كل هذا الكابوس إلى الأبد دون أن ترى شبح والدها أو زوجها المتوفى وأمه، ستختفي كل الأشباح لتعود هادية زوجتي وحبيبتي.

*****

اليوم سأذهب إلى المصحة لاستعادة هادية، كل المحادثات الفترة الماضية كانت مطمئنة، لقد تحدثت هادية مع طبيبها وأخبرته أنها تعلم أن شذا ماتت مع جدتها ولكنها في البداية لم تتقبل الأمر رفضته كاملاً، ثم بعد أن دخلت المصحة بدأت تتقبل الأمر تدريجيًّا، لم تتحدث مع طبيبها عني، هل تدرك أنني لم أمت وأنها كانت مجرد لعبة؟ أو ربما خائفة من السؤال الذي ربما يؤكد لها خبرًا أكثر إيلامًا. وصلت إلى المصحة بعد أن تركت شادي مع المربية كالعادة،

استقبلني أكرم في مكتبه ثم التقيت بالطبيب المتابع لحالة هادية، شاب في مثل سني تقريبًا أو أكبر بسنوات قليلة، ودود ولبق يحمل خبرة ممتازة بالفعل فالحديث معه كان مريحًا وعميقًا، يتعامل باحتواء وتفهم من مر بكل ذلك من قبل، فقد تعامل معي شخصيًّا بتعاطف وتفهم شديدين، ومنحني بعض النصائح في التعامل، وعلى عكس أكرم الذي اتهمني بأني أخطأت في مجاراتي لحالتها، شكرني شاهر لتفهمي لحالة هادية طوال هذه السنوات وأن هذا دعم كبير لم يرَ أحدًا يفعله من قبل، كنت أتمنى أن نصبح صديقين ولكنه رفض رفضًا قاطعًا أن تنتقل علاقات العمل لحياته الشخصية. هكذا أخبرني أكرم، فهو يلتزم بفصل كل ما يخص الحالات التي يعمل على علاجها بعيدًا عن حياته تمامًا، ورغم ذلك أخبرنا شيئًا شخصيًّا هو أنه سيسافر إلى دبي حيث عائلته وعمله هناك ولن يعود قبل ستة أشهر، كانت زيارته القصيرة من حظ هادية وقد حقق معها نتيجة عظيمة كما يقولون. ذهبنا جميعًا إلى حجرة هادية تتقدمنا الممرضة مارتا، صعدنا الدرج ألحق بالممرضة وخلفي الطبيبان شاهر وأكرم، فتحت مارتا الباب، كانت الغرفة خالية، تقدمنا فظهرت هادية تجلس على أرضية الشرفة، نادتها مارتا فالتفتت نحونا، دمعت عيناها عندما التقتا بعيني، وقفت صامتة دون أي فعل، مررت نظرها بين مارتا وطبيبها خلفي تنطق عيناها بما لا تتفوه به، تتساءل هل أنا هنا حقًّا أم أنني صورة اختلقها خيالها كباقي الأشخاص الذين ظهروا في عالمها! ابتسمت مارتا وأومأت بالإيجاب تشجعها على التقدم.. لم أرَ كيف تبادل الطبيب النظر معها، ولكن بعد نظرتها الأخيرة قفزت نحوي لألتقطها بين ذراعي، انسحبوا جميعًا من الغرفة بينما هادية تبكي على صدري.
قالت وهي تقبِّل حلتي وتستنشق رائحتي بعمق: أنت حي؟ أنت هنا معي؟
ضحكت بين دموعي التي أغالبها: افتقدتك كثيرًا يا حبيبتي، لن تتخيلي كيف كانت حالي هذه الأيام، وكيف تعبت لتعبك.
تركتني وركضت إلى الباب، فتحته لتبحث عن مارتا، جذبتها من يدها لتسألها مرة أخرى: هل ترينه مثلي؟

فتجيبها مارتا مبتسمة: ألم نتفق بالأمس أن كل ما حدث كان وهمًا في خيالك؟ وهذا زوجك والآن ستذهبين معه.

عادت لترتمي بين يدي تستنشق رائحتي بعمق مرة أخرى قالت: شذا ماتت.

أتذكر كل ما كانت تفعله بسبب الاشتياق لرائحة الموتى وتقمصها لابنتها، أتنفس الصعداء لإدراكها موت ابنتها أخيرًا، قلت: ولكن أنا هنا لم أمت.

-كنت أموت كل يوم لظني أني قتلتك.

قالتها وبكت فقلت: كانت مجرد خدعة، انتهى الأمر فلننسَه إلى الأبد.. ألم تفتقدي شادي؟

-بروحي.. أين هو؟

-في المنزل.. سنذهب إليه حالاً.

أخيرًا استعدت هادية زوجتي وحبيبتي وأم ابني. خرجنا معًا من المصحة، ركبت السيارة إلى جواري، لا وجود لتلك الالتفاتات للمقعد الخلفي، وحديثها الغريب حول ابنتها، لقد ولدت هادية من جديد، وصلنا إلى المنزل تنتظرنا السيدة منيرة حاملة شادي على ذراعها، تناولته هادية وانهالت عليه بالعناق والقبلات، فبكى بنظرة معاتبة لا تُنسى، ضمته إلى صدرها، والتفت ذراعا الصغير القصيرتان حول عنقها تعويضًا عن أيام فقدها بينما انطلقت زغاريد السيدة منيرة حولنا. جلست هادية على الأريكة تداعب شادي كما كانت تحب أن تفعل دائمًا في أوقات صفائها النادرة، ترفعه وتهدهده والصغير يكركر ضاحكًا من أعماق قلبه، أسعد لحظات حياتي هي تلك اللحظات وأنا أراهما معًا هكذا، استعدت عائلتي أخيرًا بعد عناء، عينا هادية تلمعان بالحب لي أنا فقط دون شبح ابنتها وزوجها الراحل وروائح العطور الغريبة والنبش في آلام الماضي، تفاجأت هادية بأني قد أعدت كل شيء في المنزل إلى أصله، فبعد وفاة أمي أعدت حجرتنا كاملة كما كانت وكذلك حجرة المكتب لعملي فقط ورقعة الشطرنج في مكانها، مرت هادية بجوار المكتب، ألقت نظرة على رقعة الشطرنج فالتفتت لي مبتسمة وقالت:

هل تنتظر زيارة جديدة من أبي؟

ضحكتُ قائلاً: هذا الزمن ولَّى ولن يعود، أنا واثق.

-وأنا أيضًا.. واثقة.. لن أستسلم ثانيةً لتلك الأفكار، سأقاوم حزني بمواجهته ومواجهة أخطائي.

قاطعتها: السيدة منيرة أعدت لنا وجبة شهية لنأكل أولاً.

أمسكت بذراعها وخرجنا إلى الردهة فسألتني: ولكن لماذا أعدت حجرتنا كما كانت؟ ألن تعيش والدتك معنا؟

أطرقت رأسي: هادية.. أمي ماتت في المستشفى، لم تنم في حجرتنا قط.

-ماذا تقول؟ هل كان وجودها وهمًا كذلك؟

عادت لتقترب مني، احتضنت رأسي المطرق في حزن ثم قالت: أنا آسفة لكل هذا الحزن الذي تحملته بمفردك.

النهاية

في أحد الصباحات تركض هادية خلف صغيرها نصف العاري محاولة إرغامه على ارتداء ملابسه، فيهرب منها إلى أبيه الذي يهندم ملابسه أمام المرآة، يختبئ خلفه ثم يركض إلى الخارج تتعالى ضحكاته البريئة في صخب دافئ، تضحك هادية أيضًا محدثة نادر: قطع أنفاسي ركضًا خلفه.

جلست هادية على طرف الفراش لتلتقط أنفاسها بينما ظل نادرا ساهمًا منشغلاً بفكرة ما جعلته لم يتجاوب مع ركض شادي ولا كلمات هادية وشكواها، فأشارت إليه بيدها: إلى أين سافر خيالك؟

انتبه لها أخيرًا ثم قال: أتعلمين؟ أنا أشعر كثيرًا بأمي، أسمع صوتها يتردد داخل عقلي بكلمات كانت تقولها لي ولكن توقيت استرجاع هذه الكلمات يكون مناسبًا للموقف الذي أفكر فيه، كأنها تتخاطر معي في صمت أفكارها تجيب على أفكاري.

نهضت هادية لتقف بجوار نادر تعدل من رابطة عنقه قائلة: هذا عقلك يا حبيبي، يعمل على تذكيرك بكلماتها التي تبث داخلك الراحة أو الطمأنينة كما كانت تفعل هي معك عندما تحكي لها ذلك الموقف الذي تحتاج فيه إلى كلماتها تلك.

دار حول نفسه يبحث عن حقيبته وهو يفكر في كلامها ثم يجيب: ولكني كثيرًا ما أتخيل حوارًا كاملاً يدور بيني وبينها في عقلي فقط كأني أستعيده من الماضي يحدث بنفس تعبيراتها وردود أفعالها، ولكني متأكد من أنني لم أتحدث معها في هذا الأمر من قبل أو حتى موقف شبيه له، كما أني أحيانًا أشعر بدفئها حولي، تعلمين شعورك بصحبة أحدهم هو شعور مميز لا يتكرر مع شخص آخر، أنا أشعر بهذا، أني بصحبتها، وأحيانًا أعتقد أني شممت رائحتها.

تمسح هادية على كتفه معقبة: يا نادر هذا من فرط افتقادنا لهم نشعر بذلك كشكل من أشكال التعويض وربما في هذا رحمة.

-معكِ حق.. ما الذي أقوله هذا؟ لقد تغيرت كثيرًا بالفعل.

- بالطبع.. صرت أكثر وعيًا بهذه الأمور النفسية.

التفت نادر إلى الخزانة ليخرج سترته فمنح هادية ظهره التي أطلقت بعينها اليسرى غمزة من خلال باب الغرفة المفتوح إلى سيدة تجلس على الأريكة في الردهة تتابعهما من خلال فتحة الباب الموارب، أشارت السيدة إلى هادية بإيماءة وابتسامة تأكيد على أن ما قالته لنادر عين الصواب، ثم ابتسمت لابنها الذي أغلق درفة الخزانة بعد ارتدائه السترة، حمل حقيبته ومر من خلال الباب إلى الردهة بخطوات واسعة تتبعه هادية، تجاوزا معًا الأريكة التي تجلس عليها أمه دون أن يراها، قبَّل جبين زوجته ثم أغلق باب المنزل خلفه.

انتهت

شكر وامتنان

للرفاق المحبين على دعمهم، والوقت والجهد الذي جادوا به لخروج هذا العمل في صورة جيدة.

والصديقات: شيرين سامي- غادة مرعي- هبة القاضي- سلوان عرفة- هدى عبد المنعم عبد العزيز- منى سرور- رحاب البارودي- رشا أمين- آية إبراهيم- إيمان هيثم- نهى صالح.

الكاتبة

رشا نعمان مواليد محافظة الدقهلية، صدر لها مجموعة قصصية عام٢٠١٥ بعنوان «رقصة فالس أخيرة» ورواية «إلين» عام٢٠١٨

للتواصل

https://www.facebook.com/rasha.nouman.7

Twitter: Elameera28

E mail: nouman2512@gmail.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

ن للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧